معالم الفكر الرسالي المسؤول

الثقافة الرسالية
معالم الفكر الرسالي المسؤول

الثقافة الرسالية

معالم الفكر الرسالي

المسؤول

احمد ناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴾

صدق الله العلي العظيم

الزمر ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة البدء

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد المصطفى وآله الهداة الميامين، وعلى السائرين على نهج الرسالة من عباده الصالحين .

لماذا يعيش المسلمون أقسى أنواع الإستعمار والتخلف أنّى كانوا؟ وهل كل ذلك لعنة أبدية، عليهم أن يتحملوها راضين أو مرغمين؟ .

كلاّ ..

إن هناك سنناً إلهية لا تتبدل .. وقوانين كونية لا تتغير، إذا عرفتها أمة وسعت من خلالها نحو الإستقلال والتقدم، لم تستطع أية قوة خارجية على وجه الأرض، من فرض إرادتها عليها، أو الحيلولة دون تقدمها .

ومشكلة المسلمين اليوم، أنهم نسوا جانباً من هذه السنن والقوانين التي ذكّر بها الله سبحانه في كتابه، وطبّقها السابقون من المسلمين في حياتهم .

وكانت نتيجة هذا النسيان، أنّ تلك الأنظمة الكونية التي نسوها أحاطب بهم، وأتاحت الفرصة للقوى المعادية الخارجية، ولعوامل التخلف الداخلية أن تحيط بهم .

والآن، ما هو الحل؟ .

الحل هو فهم هذه السنن والقوانين من جديد .. ووعي ما أنزل الله سبحانه في الكتاب من تذكرة بها .. وآنئذ سوف تندفع الأمة إلى تطبيقها، إذ ستجد فيها خشبة النجاة في زحمة الامواج العاتية التي

كادت تقضي عليهم، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى، كان الإسلام زلزالاً هزّ عروش الطغاة .. كان ثورة سياسية وثروة علمية، وقيمة إجتماعية، ووسيلة حضارية .

والمبادئ الصحيحة لا تصبح باطلة بمرور الزمن .. فلا يزال الإسلام تلك الرسالة الالهية الصحيحة التي ترسم للإنسان أساليب رسالية لمقاومة التخلف .

فالمسؤول عن تخلف المسلمين ليس سوى الأفكار السلبية الباطلة التي تسللت إلى ذهنية المسلمين وترعرعت فيها، وأصبحت قيماً مقدسة، ومناهج للتفكير المنحرف .

المسؤول هو الطلاق بين الإسلام كما أراده الله تعالى، والإسلام كما فهمه أجيال المسلمين المتخلفين .. الطلاق بين حقيقة الإسلام وبين واقع المسلمين .

والكتاب هذا يضع النقاط على الحروف في هذا المجال، حيث يشخّص تلك الأفكار السلبية التبريرية التي كانت عاملاً رئيسياً في صنع واقع التخلف، ويقدم للقارئ - إستنادا إلى الكتاب والسنة والسيرة المطهرة للمعصومين - الأفكار الرسالية الصحيحة، وبصائر الوحي الحكيمة لتشكل الأساس في تغيير أنفسنا وإعادة بناء مجتمعاتنا على قواعد رصينة من السنن الالهية، والقيم الرسالية .

والله الموفق وهو المعين .

١
اسئلة وحقائق

لماذا هذا التخلف؟

في كل مكان من بلاد المسلمين، وحيث ألقيت نظرا.. رأيت واقعا متخلفا، شرس التخلف، وقح التخلف، عميق التخلف.. يسود أوضاع المسلمين، ومنهم شيعة أهل البيت عليهم السلام.

وبالرغم من أن حوادث كثيرة عصفت بهم طوال العقود الاخيرة، وإنما البعض منها كان كافيا لتحريك أضخم أمة وبعثها تصارع الزمن.

وبالرغم من إستراتيجية مواقعهم الجغرافية، وبالرغم من كثافة عددهم، وضخامة مواردهم، ووحدة أراضيهم، ووحدة مفاهيمهم ومبادئهم وقياداتهم الفكرية..

وبالرغم من كل ذلك، فهم لم يزالوا تلك الامة العاجزة الفقيرة المفككة المظلومة المقهورة..

أليس هذا الوضع مثيرا للتساؤل؟

وإنه لجريمة في حق تاريخنا المجيد وأجيالنا القادمة السكوت أكثر من هذا عن طرح السؤال المصيري الذي يفرض علينا نفسه فرضا: لماذا بقينا متخلفين هذه الفترة الطويلة؟

ولكن لا يعني هذا أن نتسرع في الاجابة، ونتبرع بالحكم الكاسح على الإسلام والتشيع، ونوصمهما بسمة التخلف. إذ أن التشيع - باعتباره الوجه الناصع للإسلام - كان و لم يزل مذهبا رساليا ثوريا

أحدث هزة عنيفة في ضمير الامة الاسلامية، لا تدعها تنام على التخلف والانهيار.

وبكلمة: كان التشيع (الاسلام الأصيل) زلزالا مادت به عروش الطغاة.. كان نهضة سياسية، وثروة علمية، وقيمة إجتماعية، ووسيلة حضارية.

لقد أنجبنا أكبر العلماء، وأعظم الفاتحين، وأضخم عدد من القادة السياسيين.

والمبادىء الصحيحة لا تصبح باطلة بمرور الزمان.. فلا يزال التشيع ذلك المذهب الصحيح الذي لا يقاوم التخلف فقط، بل ويطرح أساليب رسالية لمقاومته.

ثقافتنا هي المسؤولة

فما هي المسؤولة إذن عن هذا التخلف؟

الجواب: ليس سوى الثقافة الباطلة التي تسللت وترعرت في ذهنية قطاعات عريضة من أبناء المجتمع، وأصبحت قيماً مقدسة، ومناهج للتفكير المنحرف.

المسؤول هو: الطلاق بين التشيع كما أراده الله، والتشيع كما فهمه أجيال الشيعة المتخلفون.. الطلاق بين حقيقة التشيع، وبين واقعه المفهوم من قبل الغالبية العظمى من الشيعة.. لهذا وضعنا هذه الدراسة التي تهتم بالاجابة عن الاسباب الثقافية لتخلفنا.

لماذا عن الشيعة فقط؟

هذه الدراسة تتحدث عن الشيعة بشكل خاص، ولا تتحدث عن المسلمين بشكل عام، ولا عن شعوب العالم الثالث المتخلفة، لماذا؟

أليس في ذلك نوع من الطائفية؟

أليس كل المسلمين، او حتى الشعوب المستضعفة في أقطار الارض هم أيضا متخلفون، ويحتاجون إلى ثقافة رسالية؟

ثم هل تعترف الثقافة الرسالية بحواجز طائفية بين الناس؟

وماذا بقي من حقيقة الاسلام والتشيع في الواقع العملي والتطبيقي للأمة؟

ألم تذهب حتى رواسبها أدراج رياح التغيير العصري الذي جرف كل شيء؟

هذه الاسئلة هي التي قد تثار حول هذا الكراس، والاجابة عليها توضح الرؤية حول العديد من الحقائق التي نراها نقاطا تمهيدية لهذه الدراسة.. إذن دعنا نجيب عن الاسئلة واحدا بعد واحد.

التشيع كيان إجتماعي متميز

الشيعة هم كيان إجتماعي ذو ميزات فارقة، يختلف بها عن الكيانات الاجتماعية الاخرى في البلاد المسلمة، وفي العالم المتخلف، ولذلك فهم يتمتعون بأمراض إجتماعية خاصة لا نجد مثيلها في الشعوب الاخرى، كما يتمتعون في ذات الوقت بعناصر قوة تصلح (دواءً) لتلك الامراض، لانجدها هي الاخرى في غيرها.

وميزات الشيعة (عناصر قوة أو عناصر ضعف) هي التي نتحدث عنها في هذه الدراسة.

ثم الحديث عن الشيعة هنا ليس مدحا، وإنما هو إنتقاد، ولا نظن أن الطائفية تعني الانتقاد الذاتي لأتباع مذهب دون آخر.

ثم إن الحديث عن العالم المتخلف وأسباب التخلف فيه حديث مكرر، إذ أنه كان مثار جدل طوال عقود من الزمن، وبالرغم من أنه ينسحب على الواقع الشيعي أيضا، ولكنه لا يعالج بعض الجوانب التي

تختص بها الطائفة، ودراستنا هذه تهتم في الاكثر بهذه الجوانب.

وإننا نؤمن بأن التشيع هو العمق الاصيل للاسلام، والاسلام - بمبادئه العظيمة - هو الحل الجذري ليس لمشاكل العالم الثالث فحسب، بل لمشاكل البشرية جميعها.

إنه لا يزال في الشيعي عناصر خيِّرة من تشيعه لمذهب أهل البيت عليهم السلام، ولا يزال فيه عناصر خيِّرة من رسالته، وهي عناصر تصلح بذورا لتطورات إيجابية كبيرة..

ذلك إن رياح العصرنة التي هبت على أرض المسلمين مشت على السطح و لم تمس الجذور، وبنظرة واحدة إلى الشعائر الدينية (الحج) والشعائر الحسينية (محرم) وممارسات الغالبية القصوى من الامة لاحوالهم الشخصية (الزواج، مراسيم الوفاة) كما وبنظرة واحدة الى المفاهيم الشائعة في الجمهور.. نفهم مدى الارتباط القائم بين الامة وبين تاريخها وحضارتها ودينها.

ولكن من جهة أُخرى، نجد أن المسلمين قد تركوا حقيقة هذا الدين من عدة قرون بالرغم من إلتزامهم بإطاراته الظاهرية، فالدين الذي لم يزالوا يتمسكون به، إنما هو دين ظاهري، محرف، مصطنع، يختلف جذريا عن الدين الذي جاءت به رسالة السماء.

بيد أن الامة بتمسكها بـ (إطار الدين) يعطينا فرصة جيدة لتغييرها عن طريق وضع (محتوى الدين) في هذا الإطار الفارغ.

ما هو التشيع؟

وهنا يتصل حديثنا بالجواب عن سؤال يرتبط بحقيقة التشيع.

إن التشيع هو: التطبيق النهضوي - التغييري لواقع التوحيد في جميع حقول الحياة، وبصفة خاصة في الحقل السياسي، ذلك أن

الرسالة لا تعني شيئا لو لم تُترجم الى عمل[1]، والعمل لا ينفع شيئا لو لم يجتمع ضمن كيان إجتماعي، ومن دون السياسة لا يقوم كيان إجتماعي، ومن دون كيان إجتماعي متماسك لا ينفع عمل، ولا تعني الرسالة شيئا.

أليس أي تجمع في الحياة بحاجة إلى قيادة تجسده وتوجه طاقاته، وتحافظ على حدوده، وتنشأ العلاقات المناسبة مع سائر الكيانات؟ والقيادة هي السياسة.

والتشيع الصحيح يرتكز في نظرية الامامة التي تجعلها الصيغة التطبيقية لفلسفة التوحيد.. وفلسفة التوحيد تقوم على كلمة (رفض)، وكلمة (تسليم).

الرفض يتجسد في (لا إله) حيث تسقط كل الاصنام المعبودة من دون الله.. كل الحاكميات البشرية.. كل السيادات الكيفية.. كل الذين يقودون الناس بغير سلطان من الله.. وبالتالي كل حكم ونظام من دون حكم الله ونظام الاسلام، وبلا استثناء.. هذا هو الرفض.

والتسليم يتجسد في (إلاّ الله) الاستثناء الوحيد الذي ينبثق من ضمير الرفض، إنه الله، إنه الولاية الكاملة، له الحاكمية المطلقة، له الحكم، وله الامر.

ولكن الله ليس غيبا يرتبط بالميتافيزيقيا فحسب، بل إنه ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ الأنعام،٣ ، ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنعام،١٣ ، ﴿وَهُوَ

---

١. يقول الامام علي(عليه السلام): (لأنسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي ولا ينسبها أحد بعدي إلا بمثل ذلك: الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو العمل، والعمل هو الاداء) ثم يضيف قائلا: (ان المؤمن يُرى يقينه في عمله، والكافر يُرى إنكاره في عمله). الكافي ج٢، ص٤٦

الَّذي يَتوَفَّاكُم باللَّيْلِ ويَعلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فيه لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسمًّى ثُمَّ إِلَيهِ مرجِعكُمْ ثُمَّ ينبئُكُم بِمَا كُنتُمْ تعمَلُون﴾ الأنعام،٦٠

ولان الله حيٌ، حق، قيوم، له الحكم والامر، فان له سبيلا خاصا في الحياة، وحبلاً عاصماً، وحزباً وأولياء وقيادات وكل ما هنالك من حقائق في الحياة.

ولا تعني الرسالة شيئا، ولا التوحيد والتسليم شيئا من دون الولاء، والطاعة، والانتماء لحزب الله واوليائه[١] والاعتصام بحبله[٢] والسير في سبيله.

وكلمة (الاسلام) آتية من حقيقة التسليم، بينما كلمة (التشيع)[٣] آتية من حقيقة السير العملي في طريق التسليم ووراء من يمثلون الدين.

والسير في أي طريق يعني، بالطبع، العدول عن الطرق الاخرى[٤]، ولأن التشيع حركة وسير باتجاه صراط الرسالة المستقيم، فإنه حركة معاكسة للطرق التي خلقتها أهواء الناس.

من ذلك، لم يكن التشيع فكرة أو نظرية أو طرحاً جديداً لفهم الاسلام، إنما كان مذهبا وسبيلا وحركة إجتماعية وسياسية خَلَّفت آثارها على الحضارة الاسلامية والحضارة البشرية، وحفرت للتاريخ روافد جديدة.

---

١. قال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة،٥٦-٥٧

٢. قال الله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾﴿آل عمران،١٠١﴾ ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران،١٠٣

٣. قال الله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿الصافات،٨٣-٨٤﴾. يعني ان من اولئك الذين ساروا على درب النبي (نوح) كان (إبراهيم).

٤. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم، بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام،١٥٣

بل تميزت حركة التشيع بأنها كانت أنشط حركات التاريخ في الامة الاسلامية، لأنها إستوعبت من جهة (روح الاسلام) وأعمق معانيه وجسدتها في ممارسات حياتية، وكيان إجتماعي. واحتوت - من جهة ثانية - آلام وآمال وطموحات أوسع الجماهير الاسلامية، فاذا بالفقراء، والكادحين، والمستضعفين من العرب، وإذا بالشعوب المغلوبة على أمرها من غير العرب، ممن كانوا يسمون بـ (الموالي) - إستهانة وتحقيراً - وإذا بأهل الفكر والعقل والتجدد، وإذا باصحاب الشعر والادب والتذوق، وإذا بأنصار الحرية والعدالة الاجتماعية، وإذا بدعاة الاصلاح من كل نوع.. إذا بهؤلاء جميعا يجدون في التشيع ما يبتغونه، وما كانوا يفقدونه في المبادىء الاخرى، فاذا بـ (التشيع) رؤية نهضوية رسالية متكاملة، وإذا به رمز جهادي ممتد إلى أعرق تاريخ التغيير الاسلامي، وإذا بالتشيع شعار تتجاوب معه أعرض قاعدة جماهيرية في شارع الامة.

من هنا.. كان التشيع حركة تاريخية، وبتعبير آخر: كان مذهبا وسبيلا، ولم يكن التشيع فكرة أو نظرية أو طرحاً جديداً للاسلام.

وحينما نقول إن التشيع (مذهب) لا نعني أنه يختلف مع الاسلام، إذ الاسلام، دين، ورسالة، وفكر، ونظام، ومبدأ، وقيم. بينما التشيع هو: العمل بالدين، والدعوة الى الرسالة، وتجسيد للفكر، وممارسة للنظام، وتطبيق للمبدء، وتلبّس بالقيم.

منطلق التشيع

وقد بدء التشيع حركة تصحيحية داخل الامة في عهد الرسول صلى الله عليه وآله، إذ برزت في أخريات حياته تيارات سياسية متعارضة.. فمن تيار أموي نطق بالاسلام في آخر لحظة، وبالضبط

عندما فتح الاسلام عاصمة الجزيرة العربية: مكة المكرمة، ومن تيار كَوَّنه قادة الجيش والتجار ورؤساء العشائر التي كانت قد أسلمت، ولكن لم تذوّب نفسها في الكيان الاجتماعي الجديد، بل إحتفظت بشخصيتها الاجتماعية، ومهماتها التقليدية.

وتيار ثالث كان يمثله الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، ومعه صفوة من أصحاب الرسول (سلمان وأبو ذر وعمار ومقداد).

وكان يعكس هذا التيار إتجاها إسلاميا خالصا، لا طبقية فيه ولا عنصرية، ولا شوائب من فورات الجاهلية وتقاليدها ورواسبها العشائرية.

وكثيراً ما أشاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاتجاه الصحيح، وبكل قادته، وبالامام علي عليه السلام بالذات، فقد قال صلى الله عليه وآله مخاطباً الامام علي: (أنت أول من يدخل الجنة من أمتي، وأن شيعتك على منابر من نور مبيضة وجوههم حولي أشفع لهم..)[1] وقال: (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار)[2] وقال: (إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل البيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا)[3]..

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: (سلمان منا أهل البيت)[4] وقال: (ما أظلت الخضراء، وما أقلت الغبراء، على ذي لهجة أصدق من أبي ذر.)[5] وقال لعمار: (آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن،

---

١. بحار الأنوار، ج٣٩، ص١٨.

٢. المصدر، ج٢٨، ص٣٦٨.

٣. المصدر، ج٣٦،ص٣٣١.

٤. المصدر، ج٢٢، ص٣٢٦، ح٢٨.

٥. المصدر، ج٢٢، ص٤٢٧.

وتقتلك الفئة الباغية)[1].

ولكن النبي كان يعلم وزن الاتجاهات السياسية في عصره، وأنه بالرغم من كل وصاياه يكاد يغلب على المجتمع التيار المستسلم (المعتدل) الذي يجمع بين مظاهر الاسلام وشيء من مبادئه، وبين تقاليد الجاهلية وشيء من أفكارها. ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وآله الامام علي عليه السلام أن لا ينهض بالسيف، إلا إذا نضج التيار الاسلامي الصحيح، وقبل ذلك يستمر في تغذية هذا التيار، والتضحية من أجل تعميق مبادئه المستوحاة من مبادىء الرسالة، تعميقها في ضمير الامة.

وهكذا فعل الامام وأرسى بذلك الدعائم الاولى لحركة التشيع في الاسلام.. تلك الدعائم التي سارت عليها الحركة بعد الامام، وبقيادة أبنائه الكرام، وفي طليعتهم سبطا رسول الله: الحسن والحسين والائمة التسعة من ذرية الحسين عليهم السلام، وكانت دعائم التشيع راسخة في الامة إلى أن عصفت بها ظروف خاصة، سوف نستوفيها بعد أن نتحدث عن دعائم التشيع - إن شاء الله -.

---

١. المصدر، ج٩٧، ص٣٦٦.

٢
الطلاق بين الشيعة والتشيع

ما هي دعائم التشيع وأبرز مفاهيمه؟
وهل نحن اولئك الشيعة الذين تتجسد فيهم تلك الدعائم؟
دعنا نعرف؟

دعائم التشيع:

١ - الولاية

والكلمة جاءت في آي من القرآن الحكيم أبرزها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة،٥٥-٥٦

وجاءت الكلمة في السنة حيث قال النبي صلى الله عليه وآله: (الست اولى بالمؤمنين من أنفسهم؟) فلما قالوا: (اللهم بلى) قال: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه).[١]

والولاية تعني - فيما تعني - ثلاثة إنتماءات:

أ - الإنتماء القلبي المتمثل في حب جبهة الحق وبغض جبهة الباطل.

---

١. بحار الأنوار، ج٣٣، ص٢٦٦.

ب – الإنتماء الاجتماعي المتمثل في تذويب الشخصية في حزب الله، والانقطاع عن الانتماءات العرقية والاقليمية واللغوية وغيرها إلى الانتماء الرسالي.

ج – الانتماء السياسي المتمثل في الطاعة لولي الامر باعتباره أعلى سلطة سياسية، ولا سلطة شرعية سواه.

والولاية بهذا المفهوم الواسع الصحيح، ترسم حدود حركة التشيّع، لتفصلها عن التحركات العشوائية، أو النشاطات السياسية الفوضوية، ولتربطها بخط واضح وتجمع متماسك، وبذلك تكون الولاية رفضا عمليا للقيادات الكيفية والدخيلة والمرتجلة، وهي التي يسميها القرآن بالجبت والطاغوت، كما تكون إنتماءً واندماجا عمليا بالقيادة الاصيلة النابعة من عمق الرسالة، فالولاية إذن تجسيد لمبدأ التوحيد في الواقع الخارجي، وهي تعبير عن التشيع الذي قلنا آنفا أنه الصيغة التطبيقية لمبدأ التوحيد.

وتتبع (بصيرة الولاية) عدة بصائر متصلة بالقائد وهي:

٢ - الامامة:

وهي تعني – في بصيرة التشيع – إن الله اختار للامة (أئمة) تميزوا عنها بأنهم كانوا أكثر (يقينا) بآيات الله و(صبرا) على طاعة الله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة، ٢٤

وهؤلاء الائمة الإثناعشر قاموا بدور النبي صلى الله عليه وآله في تكريس القيم الرسالية وتبيان شرائع الدين وقيادة الصفوة المؤمنة من الامة.

ومن دون جدارة عملية لهؤلاء الائمة لم يكن الله سبحانه يختارهم

أئمة لخلقه، و لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوصي بهم الامة بتلك اللغة الصريحة ذات التأكيدات المتتالية.

و لم تكن جدارة الائمة لمنصب القيادة آتية من أنهم ذرية رسول الله، كما لم تكن رسالة الرسول آتية من أنه إبن عبدالله، وكما لم تكن جدارة أي رسول من رسل الله في التاريخ البشري آتية من كونه ابن فلان أو إبن فلانة، بل لما فيه من كفاءات بلغها بسعيه وإرادته، وإن الله لم يبعث رسولا إلا بعد أن علم أنه (أكثر الناس يقينا به وصبرا من أجله).

٣ - العصمة:

ولكن الأئمة - كما الانبياء - لا يمكنهم أن يتبوءوا مناصبهم الرسالية، من دون العصمة. والعصمة هي: أعلى درجات التقوى، وتعني أمرين:

الاول - أن يكون صاحب العصمة (عارفا بالدين) فلا يخطىء في فهمه للرسالة.

الثاني - أن يكون (عاملا بالدين) فلا يرتكب خطيئة أبداً.

وليست العصمة ذاتية تدل على اختلاف عنصر الائمة والانبياء عن عنصر البشر، فقد قال الله سبحانه عن النبي: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[1] كما أنها لا تُفقد الانبياء والائمة شهواتهم الانسانية وقدرتهم على إرتكاب المعصية، وإنما هي تأييد من الله للانسان الذي يتجاوز ذاته وواقعه بعد أن يرتفع بارادته الحرة الى مستوى تلقي هذا التأييد.

---

١. سورة الكهف، ١١٠.

٤ - الغيبة:

وبعد دور الامام المعصوم، يأتي دور الامام العادل وهو الفقيه العارف بالدين والمخالف للهوى (فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه مخالفا على هواه مطيعا لامر مولاه فللعوام أن يقلدوه[١])، والامام العادل قد يرتكب خطأً أو خطيئة لانه غير مؤيد بروح القدس حتى يكون معصوما، إنما الخطأ والخطيئة ستذوبان في حياته، وسرعان ما يتمكن من إصلاحهما لأن حياته مبنية على أسس مستقيمة وليس فيها ما يدعوه للانحراف.

والامام العادل قد يقترب إلى درجة العصمة، إلا أن حكمة الله قضت بألاّ تسري عليه أحكام العصمة لئلا يتخذها بعض الناس وسيلة لتغيير الدين، فاذا بهم يتخذون الاشخاص مقياسا للحكم الشرعي، ولكي تبقى رقابة الامة فعالة على مدى تطبيق الامام للأحكام.

وغيبة الامام المنتظر - عجل الله تعالى فرجه - تعني أن مقياس الشريعة ليس (أشخاص الفقهاء)، بل هناك (قيم) معينة، يجب أن يرتبط بها هؤلاء الاشخاص حتى يرتفعوا إلى مستوى القيادة. وهذه القيم تتجمع في شخص الامام الحجة باعتباره التجسيد الحي لها، والامتداد الرسالي الصحيح والمستقيم للنبي ولطريقته في تنفيذ مبادىء الرسالة، وبتعبير آخر: إن أي (فقيه عادل) لا يحكم الامة إلا باسم الامام الحقيقي الغائب، وهو يمتلك منصب (نائب الحجة) وهذه النيابة مقيدة بشروط لابد أن يلتزم بها، وإلاّ يسترد (الحجة) إعتباره من الفقيه ويسحب نيابته.

وليست الغيبة إنتظاراً سلبيا لواقع معسول يأتي في آخر الزمان، كما أنها ليست (فراغا) في قيادة الامة.. إنما هي عملية فصل بين

---

١. بحار الأنوار، ج٢، ص٨٨.

الاشخاص والقيم لكيلا يصبح الاشخاص هم القيم.

٥ - الشفاعة:

ولأن الولاية مسؤولية كبيرة يتقبلها الشيعي طوعا، ولان الحسنات الكبيرة تذهب بالسيئات الصغيرة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ هود،١١٤ ، ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ الفرقان،٧٠ ، فإن إنتماء الانسان العاطفي والعقيدي والاجتماعي والسياسي إلى جبهة الحق يغطي على هفواته وسيئاته الصغيرة، ويكون هذا الانتماء بمثابة شفيع له عند الله لحط ذنوبه وقبول طاعاته.

وحيث تتجسد الولاية في شخص الامام تكون الشفاعة للامام، والواقع إنها ليست للامام، وإنما هي لعمل الانسان وتحمله لمسؤولية الانتماء إلى الامام وحبه وطاعته له، وتضحيته في سبيل الله تحت لوائه.

ولا تختص الشفاعة بالامام المعصوم، فان الامام العادل (المرجع الفقيه) و(المؤمن الرسالي) بمتلكون نصيبا من الشفاعة عند الله، إذ أن الانتماء إليهم، والتعاون معهم ومن أجلهم، والخدمة لهم تتحول الى الخدمة من أجل الله بطريقة غير مباشرة، إذ أن الخدمة للفقيه أو المؤمن الذي جنّد نفسه لله تعتبر خدمة في سبيل الله.

من هنا تصبح (بصيرة الشفاعة) أداة لترسيخ الانتماء الرسالي، وطريقة لتحويل القوة الدينية إلى طاقة عملية منتجة، حيث يصبح شخص الامام أو الفقيه أو المؤمن الرسالي طريقا إلى الله، وطاعته سببا لغفران الذنوب، فسيسعى الناس لخدمتهم والتعاون معهم لمرضاة الله وحسن مثوبته، وبذلك يتحول إيمانهم إلى أداة منتجة للواقع العملي، وليس مجرد عقيدة بلا عمل، أو عمل فوضوي لا يرتبط

بالجبهة المؤمنة.

إذن تقوم الشفاعة بـ:

١ - تحويل القوة الايمانية إلى طاقة إنتاجية.

٢ - تحويل الطاقة الانتاجية إلى إنتماء إجتماعي وسياسي.

٣ - تحويل الانتماء الاجتماعي والسياسي إلى دعم جبهة الحق.

وهذا المفهوم الصحيح للشفاعة لا يجعل الشفاعة بديلا عن العمل، إنما هي طريقة في العمل، وهي طريقة الإرتباط بالامام أو الفقيه أو الرسالي.

وليست الشفاعة - بهذا المفهوم - بديلا عن الايمان بالله، إذ الشفاعة تكون عند الله، ولا تكون سلطة على الله، بل دعاء اليه، فان شاء إستجاب وإن شاء لم يستجب.

والنصوص الدينية تؤكد أن الشفاعة ليست للاشخاص فقط (الامام، الفقيه، او المؤمن الرسالي) بل (للتشيع) أيضا، فيكفي أن تكون شيعيا لكي تغفر ذنوبك البسيطة وتنقلب سيئاتك الخفيفة حسنات، شرط أن تكون شيعيا حقيقياً، أما في غير هذه الحالة فان السيئات تزداد ثقلا، والحسنات تُحط وتذوب كما الملح في البحر.

لماذا؟..

لان الشيعي يتحمل مسؤوليات كبيرة ذات حسنات ثقيلة في ميزان الله مما إذا قورنت بالسيئات الخفيفة فلن تؤثر كثيرا.

ومن هنا.. نعرف أن الصلة التي تربط الشفيع بصاحب الذنب هي صلة العمل الصالح الذي يرضي الرب، ورضاء الرب ضرورة لتمشية الشفاعة، بل من دون رضاه لن يجرأ أحد من القيام بالشفاعة ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ مريم،٨٧

إذ الشفاعة الحقيقية لله جميعا: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الزمر،٤٤

وليست الصلة الرابطة بين الشفيع وصاحب الذنب صلة القرابة النسبية. ألا ترون كيف نهر الله شيخ أنبيائه نوح عليه السلام حين وعده أن ينقذ أهله من الغرق وإذا بإبنه يلفه الغرق ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾هود،٤٥-٤٦

إنّ الصلة التي يعترف بها القرآن هي الصلة الايمانية، ودونها ليست هناك صلة معترف بها، إبتداءً من صلة القرابة، وانتهاءً بصلة الشرك التي قال عنها الله: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾الأنعام،٩٤

٦ - عصر الغيبة

هل ينتهي واجب الولاء بعد عصر الائمة؟

وهل تعني غيبة الامام الحجة إنتهاء دور المسؤولية الانسانية في الارض، وتتبخر تلقائياً كل حكَم الله في خلق البشر؟

وهل يعني إنتظار الشيعي لظهور دولة الحق في عهد الامام الحجة المرتقب، هل يعني إنتظاراً سلبيا ساكنا؟

بالتأكيد: كلا.. إنما عصر الغيبة هو عصر جديد إنتقل إليه الشيعة بعد أن نضجت فيهم رسالة التشيع وأدوا حقوقها، ذلك إن الله الذي إختار الاسلام خاتم رسالاته، إختار له أمناء عليه هم الائمة الاثناعشر، فكفى الله بهم مسؤولية إختيار القادة، ووجههم إلى أداء مسؤوليات الرسالة الخاتمة والمهيمنة على الرسالات، فلما علم الله أن

الامة تشبعت بالرسالة، وانبثقت منها جماعة تنبعث بأمر الله، إختار لوليه الغيبة ليُحمِّل الامة مسؤوليتين: مسؤولية العمل بالرسالة ومسؤولية إختيار الامين عليها، مسؤولية الطاعة ومسؤولية إنتخاب ولي الطاعة، فكانت على الشيعة في عصر الغيبة مسؤولية الامامة والتي تعني ثلاث مسؤوليات ثقيلة:

١ - مسؤولية العمل من أجل خلق الظروف الملائمة لخلق القادة الذين تبرز فيهم صفات الائمة الطاهرين.

٢ - مسؤولية التعرف على هؤلاء القادة.

٣ - مسؤولية الوقوف إلى جانبهم، وسد الباب أمام القادة غير الكفوئين.

وهذا يعني: إن عصر الغيبة يشبه العصور التي تلي مباشرة رحيل الانبياء، حيث تتحول المسؤولية الرسالية من كاهل المرسلين إلى كتف الصالحين لتحملها.

وكذلك عصر الغيبة، فبعد أن أكمل الائمة عليهم السلام أدوارهم في خلق النماذج الصالحة لتحمل رسالة الاسلام ومذهب التشيع عبر الاجيال، بعدئذ جاء الصالحون لتحمل مسؤولية التشيع. وإنما الفرق بين الانبياء ونبي الاسلام كان يكمن في أن الاسلام كان الكلمة الاخيرة التي نطقت بها السماء، فكان أحوج إلى أوصياء يكرسونها في واقع الامة، ويتابعون عملية بناء الاجيال القادرة على حملها والنهوض باعباء مسؤوليتها.

وبهذا لم تكن الغيبة (فترة استراحة للائمة) و(فترة نوم للامة) وبالتالي (فترة توقف للرسالة) كلا.. إن الامام حي يُرزق بالرغم من أنه غائب، لذلك فان على الامة أن تراقبه، وتتحسس بهيمنته، وتتبع (الوكلاء) الذين يقومون بدوره في تسيير أمور الحياة، وهم

الفقهاءالعادلون العالمون الذين هم في الوقت ذاته امناء على الرسالة[1].

٧ - الفقيه

والفقيه هو العالم بالدين، والعارف بالحياة، والقادر على ربط الدين بالحياة.. إنه يعرف التطورات التي تجري على الساحة في ضوء رؤية متكاملة شاملة للرسالة، ويقدر على إعطاء حكم اسلامي فيها، إنه أداة لتطوير الرسالة وفق الظروف المتغيرة (واما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا[2]) - كما قال الامام الحجة (عجل الله تعالى فرجه) -.

وفي ذات الوقف فهو أمين لا يخون الرسالة ولا يزيد فيها ولا ينقص ولا يُحرِّف: (وأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا على هواه، مطيعا لامر مولاه.. فللعوام أن يقلدوه[3]).

وفي ذات الوقت فهو أقدر الناس على حمل الرسالة، ويتميز عن الآخرين بقدراته العقلية والجسدية والعملية والأخلاقية التي تمكنه من قيادة الامة[4].

---

١. روي أن الرسول قال: (رحم الله خلفائي) فقيل يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: (الذين يحيون سنتي، ويعلمونها عباد الله) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥، وقال الامام الصادق عليه السلام: (العلماء ورثة الانبياء)، بحار الأنوار، ج٢،ص١٥١.

٢. بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٨١.

٣. بحار الأنوار،ج٢، ص٨٨.

٤. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾السجدة، ٢٤

توحي هذه الآية الكريمة أن صعود البشر إلى درجة الامامة سيكون من على سلم (الصبر واليقين) فلما صبروا وكانوا بآيات الله يوقنون إنتخبهم الله أئمة ليهدوا بأمره.. وفي هذا المفهوم جاء في الحديث المأثور عن الامام علي عليه السلام ما يدل على ان اولى الناس بأمر الامامة، أعلمهم بكتاب الله، واقدرهم على تطبيق واجباته.

وليس الفقيه هو ذلك الذي لا يعرف الحياة، بل لا يعرف من الدين إلا شيئا قليلا.

إنه لا يصلح للقيادة ذلك الفقيه الذي يفقد المؤهلات الفكرية أو الجسدية أو العلمية أو الأخلاقية التي تحتاجها قيادة الامة في الحقبة الزمنية التي يعيشها.

٨ - البدعة: الانحراف عن الرسالة

إنما البدعة الخروج عن الاصول العامة للدين أو المذهب، وقطع الصلة بين الامة ومنابع ثقافتها من الكتاب والسنة والعقل والاجماع، وهي بالتالي إستصدار حكم، وصنع شريعة لا تمت إلى الدين بصلة.

وليست البدعة تطوير الشريعة وفق متغيرات الظروف، بالاعتماد على القواعد الرسالية والبصيرة الدينية، ذلك إن التطوير السليم دعم للرسالة وعطاء لها.

وإذا تصورت طائفة من الامة واقع البدعة على أساس أنها سد أمام إحتمالات التطور الصحيح، فانما ذلك جمود وتخلف وتقوقع على الماضي البالي.

والقياس السليم المعتمد هو الآخر على اصول الفكر وحدود الشرع (والذي يُسمى بالقياس العلمي أو فهم المناط) ليس حراما، بل يعتمد عليه تطوير الفقه، إنما الحرام هو القياس الصبياني الذي ينطلق من قواعد كيفية يختلقها الناس وفق مصالحهم وأهوائهم.

٩ - التقليد والإتّباع

واجب الامة إتّباع الامام وتقليد الفقيه، ولكن ليس ذلك الإتباع السلبي والتقليد الاعمى الذي يريح الانسان من تبعات التفكير،

وحرية الرأي، ومسؤولية الاختيار. إنما ذلك الإتباع الواعي[1] الذي يساهم صاحبه في مسؤولية القرار ويتحمل جزءا من تبعته.. إذ على الامة أن تختار إماما فقيها تقيا قادراً، حسب المواصفات التي تحددها الشريعة، ثم تبقى تراقبه لكيلا تتغير فيه هذه الصفات ثم تتبعه، وهناك يكون الإتّباع واعياً وبصيراً.

إن المفهوم الخاطىء من (تقليد المرجع الديني) هو الذي يتصوره السلبيون حين يزعمون: إن التقليد يعني الابتعاد عن المسؤولية، بإلقاء تبعة الأعمال على كاهل المجتهد. كلا، إن مجرد كون إنسان رجلا فقيها، وكون آخر جاهلا، لا يعني تعطيل هذا الفرد الجاهل في الحياة وتعطيل دوره فيها.

١٠ - الانتظار: أمل وإعداد

الواجب العملي للامة في عهد الغيبة هو التقليد الواعي البصير للفقيه التقي، أما الواجب النفسي لها - عهدئذ - فهو الانتظار والاستعداد للعمل، ولا يعني الانتظار ذلك الجلوس الساذج في قبو الانانية في انتظار الغيب المجهول من وراء ستار المستقبل.. كلا.

وليس ذلك الارتخاء الشامل لكل مرافق النشاط بالتخدير المستمر للاعصاب، لكيلا تشعر بثقل الالم فتثور ضد الفساد والجريمة.. كلا.

---

١. جاءت في القرآن الحكيم آيات عديدة تهزأ بالإتّباع وتصور لنا كيف أنه لا يصلح تبريرا للفساد والاثم.. من تلك الآيات ماجاء في سورة البقرة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ البقرة، ١٦٥-١٦٧

وليس الخروج عن حاضر الزمان بحرارته ونشاطه وإمكاناته، والعيش في مستقبل الآمال ببرده وخموله وضعفه.

إنّ هذا هو انتظار العاجزين والكسالى والمخدوعين. أما الانتظار الحق الذي يسري في عروق الشيعي مجرى الدم، فهو الامل والاستعداد، ذلك الامل الذي يعطيه في كل ظروف الهزيمة هدى وضياء يقاوم بهما اليأس، ثم يدفعه إلى الاستعداد بالعمل.

وكما مفهوم الانتظار، كذلك مفهوم الصبر. فإنه تحدٍّ لشهوات الذات وضعف النفس وخور العزيمة، وإعداد للانسان لكي يقاوم الظلم والفساد ويستعد للتضحية في سبيل ذلك[1].

إن الطاعة صبر، ومقاومة المعصية صبر، وتحمل الاذى صبر،[2] وهذه جميعا أعمال وفاعليات إيجابية، وليست ردود فعل سلبية.

متى وكيف إنحرفنا؟

الانسان، المسؤول الاول عن تاريخه

عندما يتوقف الانسان عن العطاء يتوقف كل شيء في الحياة، هذه الحقيقة تفسر كل منعطفات التاريخ الكبيرة.

فلماذا خارت أو إنحرفت الرسالات العظيمة التي أعادت بناء حياة الانسان على أسس جديدة من الخير والصلاح، كرسالة نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم أجمعين - فاذا بالجاهلية تعود الى الانسان، واذا بالطغاة من نمرود وشدّاد وفرعون وأصحاب

---

١. في صفات المؤمن قال الامام علي عليه السلام: (فمن علامة احدهم انك ترى له فقها في دين وصبراً في شدة)، بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣١٩.

٢. جاء في الحديث عن الصبر: (الصبر ثلاثة: الصبر على المصيبة، والصبر على الطاعة، والصبر على المعصية.)

الاخدود وبني أمية ينزون على منابر الرسالات ويتبوءون مقاعد الحكم ويكررون مآسي الانسان؟

ولماذا لم تعد تلك الرسالات تبني الحضارة وتصنع الحرية والرفاه للانسان؟

ولماذا جمدت أو فسدت الثورات الجبارة التي سخنت بها نفوس الملايين من البشر كثورة كونفشيوس وبوذا وماني وسقراط.. فاذا بها بعد التوهج والانطلاق، وبعد أن أعطت الانسان خيرات لا تحصى، فاذا بها بعدئذ صارت أحاديث ترويها كتب التاريخ، ولم يبق منها سوى روافد صغيرة من بعد سيل عارم؟

ولماذا ركدت أو انطوت الحركات العلمية الضخمة التي شهدتها حياة البشرية منذ خمسين ألف سنة، من حركة المصريين الذين ولعوا بدراسة النجوم وزراعة الارض وخلفوا الاهرامات العظيمة.. إلى حركة اليونان الذين خلّفوا جمهورية أفلاطون ومنطق أرسطو وإلياذة حامورابيس.. وإلى حركة المسلمين العلمية الذين صنعوا الساعة، وطوروا صناعة الورق والبارود، وخلقوا علم الجبر والمقابلة.. فاذا بها كالبحر بعد العاصفة: ركود قاتل وانطواء قاس؟

لماذا؟. ولماذا؟. ولماذا؟.

أأقدار، أم حتميات، أم سنن لا تجد لها تحويلا؟ أم ماذا؟

لا ريب إن هناك أقداراً ومقتضيات وسننا مما ذكرها علماء التاريخ، ولكن لا ريب كذلك إن أهم حقيقة تفسر هذه الظاهرات التاريخية هي الحقيقة المتقدمة:

(عندما يتوقف الانسان عن العطاء يتوقف كل شيء في الحياة).

فالذين حملوا الرسالات، والذين فجروا الثورات الرسالية، والذين قادوا الحركات العلمية إنما هم بشر، أمثال كل البشر، فحتى الانبياء

قالوا واعترفوا بأنهم بشر: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إبراهيم، ١١

ولكنهم بشر أعطوا من أنفسهم العطاء المتناسب مع إنجازاتهم.. بشر عملوا الصالحات.. صبروا على الصعاب.. والذين جاؤوا من بعدهم كانوا أيضا بشراً، ولكنهم بشر لم يفعلوا شيئا عظيما، لانهم بشر توقفوا عن العطاء الحقيقي.

إن كل عظيم خلق شيئا عظيما حقق هذه المعادلة:

بشر+عطاء=عظمة.

وقد تكون جهود واحد من الناس فقط هي التي فجرت طاقات مجتمع، ولكن هذا الواحد كان هو الآخر بشرا: أراد، فاعطى، فحرَّك المجتمع. والمجتمع بدوره أفراد إستجابوا لهذا الواحد.

إن إرادة الانسان، والتي تتحول إلى عطاء، فعظمة، فحضارة، فحركة تاريخية خالدة.. هذه الارادة لا يمكن تعليلها وتفسيرها ووضع قواعد لها بحيث نعرف متى توجد؟ ومتى لا توجد؟.

فالانسان هو ذلك الكائن الحر الذي مُنحت له الاستطاعة و لم تُمنح لكائن آخر، وبهذه الاستطاعة: يريد، أو لا يريد، كيف، ومتى شاء.

وهذه الحرية تعني: القدرة على تحدي كل الظروف وكل المقتضيات.

ولان الانسان حر فهو مسؤول، ولكن لان الحرية تتبع المسؤولية، وتحمل المسؤوليات ليس سهلا، فإن البشر يجنح إلى حذف الحرية الانسانية ودورها في تفسير الحياة بطريقة تجعلها خاضعة لحتميات معينة، وكذلك يصنع في تفسير التاريخ.

فمن الصعب علينا أن نقول: إن إرادة الانبياء ومحض إختيارهم

غير المشروط، كانت الارض الطيبة التي هبطت عليها رسالات السماء، وإن إرادة المسلمين والمفكرين هي التي صنعت الحضارات الكبيرة.

ولكن ذلك هو الواقع وهو الرأي الصحيح في تفسير التاريخ كله، والتاريخ الشيعي بوجه خاص.

إن الشيعة هم الذين حملوا مسؤولية التشيع، وهم الذين جعلوه حركة جهادية تغييرية رسالية عارمة.

وحينما ذهبت أجيال الشيعة المجاهدون، خلف من بعدهم خلف أضاعوا التشيع، وعافوا رسالة النهضة والجهاد والتغيير.. لماذا؟ لأنهم أرادوا ذلك كما أراد آباؤهم خلاف ذلك.

لقد كان التشيع نتاج إرادة مكثفة لطائفة واسعة من المؤمنين الاحرار والمجاهدين والمخلصين من أجل الله.. وأما خمول التشيع في قرون لاحقة فقد كان هو الآخر نتيجة ضعف في إرادة التحرر وخور في عزيمة الجهاد والتغيير.

لقد بلغ الاخلاص بالشيعة أن دفعهم إلى مقاومة أعتى الحكومات الظالمة، وبناء أكبر حركة تحررية في التاريخ.. وحين ضعف هذا الاخلاص ضعفت تلك الحركة وأصبح الشيعة طائفة تجمعها مفاهيم تقليدية لا روح فيها.

وحين تعقد أجيال الشيعة اليوم العزم الراسخ لإعادة الروح إلى الامة، فسوف لاتتمكن من ذلك فحسب، بل وتخلق بمدى عزمها إمتدادات جديدة للفكر الشيعي، وأمواجاً جديدة للرسالة.

إن التخلف في واقعنا اليوم إنما هو تخلف مركّز أفرزته أجيال وأجيال، فكلما جاء جيل أضاف على بدع الماضين أوزاراً جديدة، فإذا بها إجتمعت عندنا كما تجتمع رواسب رافد مر على الاوساخ

فحملها معه في حفرة، ونحن اليوم نقف في تلك الحفرة، حيث اجتمعت عندنا رواسب أجيال عديدة من التخلف.

ولذلك فإن عملية التحول في الرسالة الشيعية لم تجر مرة واحدة إنما بالتدريج، فحين توقف كل جيل، بل وحينما توقف كل فرد فرد من أبناء الجيل الواحد عن أداء رسالته، وبَدّل جانباً من المفهوم النهضوي الجهادي عنده، وسكت الآخرون وتراضوا به.. حينئذ نشأ التخلف الاجتماعي في جيل ثم في أجيال.

من هنا، يتحمل كل فرد فرد من أبناء الاجيال مسؤوليته في التخلف الذي نعانيه.

ولكن لا يعني هذا إننا لم نعد نملك عناصر حية.. أجل، إن نهر التاريخ لم يحمل إلينا رواسب التخلف فقط، بل حمل أيضا ماءً يصلح لدى التصفية أن يكون سائغا وطهورا.. ذلك هو ماء معين التشيع العذب.

فهنالك الثقافة الرسالية الغنية التي عن طريق إعادة تفسيرها وبلورتها تصلح أن تكون أفضل أداة للتفجير الرسالي، وهنالك التاريخ الجهادي العظيم الذي عن طريق إعادة تقييمه وصياغته نحصل على كنز من الذخيرة الرسالية.

وبقاء هذا التراث الحي من التاريخ هو الآخر رهين جهود أفراد من أجيال التخلف، فلولا جهادهم لماتت الثقافة والتاريخ الرساليّان كليا.

إنهم هم الذين ألفوا الكتب، وحافظوا عليها، وراعوا التقاليد الجهادية (مثلا إعادة ذكريات الجهاد الشيعي) بل هم الذين استوحوا من التشيع، وقاوموا الباطل مقاومة لم تبلغ درجة التشيع الاول، ولكنها كانت ذات شأن.

من هنا نعرف إن التاريخ كله، والتاريخ الشيعي بوجه خاص،

صنعته إرادة الرجال وعزائمهم، وبمدى وجود هذه الارادة يوجد تاريخ عظيم، وبقدر فقدها تقل عظمة التاريخ ومجد الانسان.

الرسالة حين تبتلعها السلطات

صحيح إن الحتميات لا توجد في التاريخ، وإن التاريخ تصنعه إرادة الانسان، وإرادة الانسان حرة.

إلا أن في التاريخ مقتضيات تساعد على نوع من الارادة.. فهناك مثلا ظروف (تقتضي) الثورة والجهاد، كما إذا تحدت حضارة غالبة شعوبا مستضعفة، وهناك ظروف (تقتضي) الميوعة والكسل، كما إذا نجحت الثورة في رد التحدي ووصلت إلى مكاسب مادية مغرية.

بيد أن قدرة الانسان تستطيع تجاوز الظروف، فلذلك قد تختار الجمود في ظروف الجهاد والتحدي، وقد تختار النهضة في ظروف الميوعة والدّعة، وهذا ما حدث فعلا بالنسبة إلينا.

فعندما كان الجهاد الشيعي أداة معارضة للحكومات الجائرة ووسيلة تنفس للشعوب المضطهدة ضد طغاة بني امية وبني العباس، كان عناصر الشيعة نابعين من أرض الجماهير المجاهدة، فلم يكن يقبل التشيع إلا كل من وَطّن نفسه سلفا على التضحية من أجل الله، إذ أساسا كان التشيع إختيارا واعيا يتقبله الشخص بعد تفكير جدي..

إنه كان إنتماءً مسؤولا، وكما يكون أي إنتماء إلى حركة نهضوية تغييرية خاضعا لاختيار الشخص ذاته، كذلك الانتماء إلى التشيع، و لم يكن التشيع ميراثا رخيصا يورثه الاب كرها لابنه، ونحن نلاحظ إن التشيع لم يكن يعرف النسب، فهناك آباء شيعة مجاهدون وأبناء مستسلمون.. وهناك آباء يعيشون في كنف الحكم الظالم، وأبناء يرفضون سيرتهم.

ولكن حين نجحت حركات الشيعة التغييرية، فاذا بها تشكل في عصر المأمون العباسي وما بعده قوة سياسية ضاربة، ترى من السياسة التعايش مع الحكومات لاصلاح الاوضاع الفاسدة. وفي عصور تالية نجحت ثورات الاسماعيلية في السيطرة على مصر وأجزاء من المغرب العلوي، ونجحت ثورة آل بويه في إنتزاع السلطة الحقيقية من يد الخليفة في العاصمة (بغداد).

هناك بدأ خط التحول في مذهب الشيعة، إذ حقق مرحلة من مراحل جهاده، فإذا بالشيعة هم الحكام، وإذا بالمبادىء الرسالية مطبقة بشكل ما.

ولقد انتهى في العصر البويهي دور الشيعة كبناة حضارة ودعاة رسالة، إلى رعاة حضارة وعاملين من أجل تثبيتها وضرب القوى المعارضة لها.

وقد حدث مثل ذلك في فجر الاسلام، حين حكم الاسلام على الجزيرة العربية، وتحوّل عند كثير من المؤمنين به إلى أداة السلطة ووسيلة العيش، إلا أن معركة صفين جاءت لتخلق جبهة معارضة لهذه الطريقة من التفكير، حيث تمكنت هذه الجبهة من إجراء عملية فصل بين إسلام الكراسي والمصالح، وبين إسلام التضحية والرسالة الحقيقية.

وبعد أن سيطرت هذه الجبهة على الحكم في نهاية القرن الثالث تحولت هي بدورها إلى أداة للسيطرة ووسيلة للمعاش.

فالشيعي في أيام البويهيين في العراق، والفاطميين في إفريقيا العربية، لم يكن ينتمي الى التشيع بانتخابه الشخصي، ولم يكن يعرفه كإنتماء ولائي وسياسي إلى حركة جهادية تغييرية، إنما كان يرثه كما يرث الواحد منا متاعا، وكان يدخل في التشيع، لانه مذهب

السلطة ومذهب الاكثرية الساحقة من الناس.

أمام هذا التطور، وقفت جبهة الفقهاء الذين رصدوا التغيير في التشيع وأدانوه، ولكننا لا نعهد في التاريخ الشيعي - وللاسف - بديلا ثانيا لمعركة صفين حيث فصلت بين دين الحاكم ومنطقه النابع من مصالحه، وبين دين الله النابع من الحق الخالص.. إنما إقتصرت جبهة الفقهاء على تعرية الحكام وبيان زيف إدعائهم في أنهم يمثلون التشيع الصحيح.

وحين سقطت الحكومات الشيعية، عاد التشيع مرة أخرة إلى طبيعته الجهادية التغييرية، ولكن ليس بالشكل الذي كان عليه سابقا، إذ حمل معه رواسب من عصر السلطة.

ولا ريب إن الحركات السرية التي تحولت إلى مذاهب باطنية (أمثال العلويين، الدروز، النصيريين، وغيرهم) هم جزء من هذه الرواسب.

وعاد التشيع مرة أخرى إلى الحكم في العهد الصفوي، وعادت معه بالطبع رواسب العهود الماضية، بالاضافة إلى أفكار جديدة خلقتها ظروف السلطة الجديدة، وبالاضافة أيضا إلى الافكار الصوفية والوثنية، التي صبت في روافد التشيع من مجاري الثقافات العتيقة، وأصبح التشيع بعد ذلك يعاني من أفكار العهد السلطوي القديم ومن أثقال الثقافات الدخيلة.

لقد قاوم الفقهاء، بكل الوسائل المتاحة لهم، تلك الافكار الدخيلة[1] الصوفية والوثنية، ولكنهم لم يقاوموا بتلك الشدة والحزم

---

١. حارب العلامة المجلسي - رضوان الله عليه - الافكار الصوفية والوثنية الدخيلة في ايران، واستطاع أن يقتلع جذورَها من أرض الجماهير وذلك في نهاية المئة الاولى بعد السنة الالف من التقويم الهجري.

الافكار السلطوية التي نبتت في حقل التشيع بسبب إبتعاده عن الروح الجهادية الرسالية.

وكلما يعود التشيع إلى سابق رسالته، يكتشف الشيعة الجدد الذين لا يعتبرون التشيع ميراثا، ولا يعتبرونه موضة مرغوبة عند الناس، ولا محلا تجاريا رابحا، يكتشف هؤلاء الشيعة الجدد الذين ينتمون إلى التشيع على أساس أنه رسالة نهضوية، ومسؤولية ثقيلة، وارتفاع الى مستوى التضحية الكاملة من أجل إنقاذ الانسان من العذاب..

نقول: يكتشف الشيعة الجدد: إن التشيع ضياء تلفه غيوم الافكار السلطوية والثقافات الدخيلة.. فيتخلصون منها مرة واحدة.

٣

حين تصبح الرموز قشورا

الرسالة محتوى وإطار

محتوى الرسالة: الصدق والعزيمة وحب الناس، والتضحية، والايثار، وبالتالي الايمان والعمل الصالح..

أما الاطار فهو: الصلاة، والزكاة، وتلاوة القرآن، والالتزام بالعبادات.

وحين يتعهد الانسان بالرسالة عن قناعة وفهم، فهو يستهدف المحتوى الرسالي من خلال ممارسته لإطاراتها المعلومة.

فهو يستهدف صدق العزم ، وحب الناس، والايمان من الصلاة، فالصلاة بالنسبة إليه إطار ومحتوى.

أما حين يرث الانسان الرسالة إرثا، فهو يفرغ الاطارات من محتوياتها، فاذا به لا يفهم من الصلاة إلا بضعة حركات ونشاطات جسدية فحسب، وهنا تضيع الصلاة عند هذا الجيل، إذ أنها لا تؤدي رسالتها، وكما يقول ربنا:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ مريم،٥٩

ولكن لماذا يحدث ذلك؟ وكيف يفرغ الذين يرثون الرسالة، الرسالة من محتواها؟

يحدث ذلك لسبب بسيط هو: أن العقل البشري يشبه المصباح

المنطفىء، لا يضيء من حوله لو لم تمسسه نار، والنار التي تشعل مصباح العقل هي الحاجة، فمتى ما أحس الانسان بالحاجة، تحرك عقله ليكتشف الوسيلة التي تُشبع حاجته.. لذلك لما جاع آباؤنا الذين عاشوا في الكهوف، إكتشف عقلهم وسيلة الصيد، وحين مرضوا وتألموا من أكل اللحم النيء، إستثار الا لم عقلهم فاكتشفوا النار وعرفوا فن الطبخ، وحين شعروا بالبرد حركوا عقولهم لتبتدع لهم اللباس والمأوى.

وهكذا الامة، حين تتحداها أمة قوية غازية، تستثير عقلها لتكتشف طريقة مقاومة العدو، فاذا بها تكتشف حضارة عملاقة.. هكذا إكتشفت شعوب اوروبا حضارتها بعد التحدي الذي تعرضوا له من قبل المسلمين في القرن السادس الهجري.

وحين تحدت حضارة الغرب امتنا - اليوم - هزت عقولنا، وجعلتنا نبحث عن وسيلة للتقدم.

من ذلك نعرف أن الحاجة نار تمس مصباح العقل، فاذا به يضيء، وحين لا يوجد لدينا نار نقتدح بها المصباح فانه لا يضيء، وكذلك حين لا توجد لدينا حاجة فان العقل يتوقف.

وماذا يحدث لو توقف العقل؟ تحدث تماما (القشرية) حيث لا يفهم الانسان من الدنيا إلا ظاهرا من قشورها، أما اللباب التي هي الحقيقة من وراء القشور فانه لا يعرفها، لان مصباح عقله ظل منطفئا، لانه لم تمسسه نار الحاجة.

الرجل الذي يحتاج الى التدفئة، فيثير عقله ليكتشف اللباس والمسكن، يختلف عن ذلك الذي يرث اللباس والمسكن دون شعور بالحاجة إلى التدفئة، فهذا لا يعرف من اللباس والمسكن إلا ظاهرهما وقد يتخذهما زينة وترفا، بل وقد يتخذ لباسا لا يدفئ، ومسكنا لا

يغني عن البرد شيئا.

هكذا الامة التي ورثت الرسالة من بعد أهلها الحقيقيين، إنها لم تتحسس بالحاجة إليها، وتبعا لذلك لم تحرك عقلها لاكتشاف الاهداف المتوخاة من طقوسها، إنما إتخذت ظاهرا من الطقوس تقليدا وإرثا، وتركت اللباب لا تعمداً بل جهلا.

والامة الاسلامية - جميعا - مشتركة في هذا الداء (داء القشرية) إلا ان البلاء عند الشيعة أعظم، لأنهم كانوا الحركة الجهادية الرسالية داخل هذه الامة.. كانوا صرخة المعارضة الساخنة.. كانوا الروح اليقظة التي تحملت مسؤولية مقاومة التحريف، وأعطت في هذا السبيل الكثير من التضحيات، لذلك كانت النظرة القشرية بالنسبة إليها تعني شيئا مؤسفا وأليما.

إنها تعني: الحرفية في حركة جهادية، في تجمع نهضوي، في إنتماء رسالي.. بينما تعني القشرية لدى الامة حرفية التطبيق في الدين، في نظام إجتماعي سائد، في ثقافة راكدة تدعم هذا النظام.

من هنا.. كانت نتائج القشرية الحرفية في تطبيق التشيع أكبر خسارة من القشرية في تطبيق الاسلام عموما.

دعنا الآن نلقي نظرة على هذه النتائج الخطيرة:

القشور.. هي التي بقيت

لأن الشيعة كانوا في يوم أحق الناس برضوان الله وأقربهم إلى جناته.

ولأنهم كانوا - في يوم - ينتمون إلى حركة أصيلة، منسجمة مع روح الاسلام وكل قيمه الرسالية.

ولأن تاريخهم مليء بالتضحيات القيمة في سبيل الدفاع عن الرسالة ومقاومة التحريفية السياسية والاجتماعية والثقافية.

ولانهم عاشوا في ظروف رهيبة ورثوا مرارتها ومآسيها، وبالتالي فهم حتى اليوم مطاردون من قبل أعدائهم بالامس الذين هم بدورهم ورثوا من آبائهم البغضاء والشنآن وحب الانتقام ضد الشيعة.

لكل ذلك، أصبح الشيعة يزعمون أنهم هم الشعب الذي خصهم الله بجناته وكتب لهم رضوانه الى الابد.

أو بتعبير اخر: الثقافة الشيعية التاريخية كانت قشرة ولباب.

القشرة كانت المآسي الظاهرة، الجدليات الفكرية التي تثبت واقعية المذهب، العداوات العديدة المزروعة في أفئدة الجماعات الآخرى بفعل حنيفية المذهب ورفضه المستمر لكل الاوهام والاساطير الشائعة ذلك اليوم.

أما اللباب فكان الالتزام المسؤول بالخط الصحيح في الحياة، إيمانا، وتشريعا، وخلقا، كانت الثورية الهادفة تغيير كل إنحراف باطل داخل الامة الاسلامية، وكانت بالتالي الثورات المتلاحقة التي فجرها الشيعة ضد الطغاة والمنحرفين والمستسلمين للواقع الفاسد.

أما اليوم فقد ذهب اللباب، والقشور هي التي بقيت، كما العاصفة تمر، ويبقى وراءها غبار كثيف.. يزعم الساذج أنه هو العاصفة، كما يزعم شيعي اليوم أن التشيع ليس سوى إجترار وتكرار الجدليات، والاستمرار في خط العداء ضد كل الفئات الاخرى.

وللاسف، أصبح الشيعي - اليوم - يتمتع بهذه الصفات الثلاث التي حولت النهضة الشيعية التاريخية إلى حروف فارغة، كما شجرة إجتثت من فوق الارض.. وهي:

ألف - إجترار المآسي والدموع اللامسؤولة

ليس في تاريخه - حسب فهمه لتاريخه - سوى المآسي والويلات:

قتل، وتشريد، وحروب فاشلة تتصل بمذابح دامية، وآمال محطمة، كما تتحطم أمواج البحر فوق صخور الشاطىء.. الف وأربعمائة عام من تاريخ أمة لم يبق منها سوى مذابح وكوارث فجرت دموع الملايين من الشيعة، وهم يرددون هذه الرائعة الشيعية التي كانت في يوم أنشودة الجهاد، وتحولت بفعل الفهم الخاطىء إلى أداة يأس وحرمان:

نحن بنو مصطفى ذوو غصص يجرعها في الانام كاظمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم ونحن أعيادنا مآتمنا

الدموع الشيعية كانت في يوم وسيلة إعلامية ضد أعدائهم، كانت دموع فاطمة الزهراء تمهيدا لخطبتها التي قالت فيها: (ألا: قد أرى أن قد أخلدتم الى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم، فان تكفروا انتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد الا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم..[1]).

وكانت دموع زينب (إبنة فاطمة) تذليلا لعنجهية الامة، ولتعبر كلماتها الرسالية إلى أفئدتهم الصخرية.. تلك الكلمات التي قالت فيها:

(أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، ألا وهل فيكم إلاّ الصلف والنطف، وملق الاماء وغمز الاعداء، أو كمرعى على دمنة، او كفضة على ملحودة.. ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب انتم خالدون.... وبُعدا

---

١. بحار الأنوار، ج٢٩، ص٢٢٩.

لكم وسحقا، فلقد خاب السعي وتبت الايدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضُربت عليكم الذلة والمسكنة.[1])

ومآسي زين العابدين عليه السلام كانت مجرد مقدمة رسالية لخطابه العظيم في المسجد الاموي، ذلك الخطاب السياسي الذي زلزل عرش أمية في عاصمة ملكها، وقال فيه (وهو يؤنب خطيب البلاط الاموي): (ويلك أيها الخاطب! إشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوأ مقعدك من النار)[2].

وقال مشيرا الى الطاغية يزيد - عندما أمر المؤذن أن يقطع عليه خطابه بالاذان - : (محمد هذا جدي أم جدك يا يزيد؟ فان زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدي فَلِمَ قتلت عترته)[3].

ولكن ماذا بقيت من الدموع الشيعية؟ بقيت قطرات ماء رخيصة تتساقط على أحضاننا المليئة بالجريمة والفساد، لتغسلها - كما نزعم - ولنقوم من مجلس العزاء محصّنين ضد عذاب الله، وضد محاسبة التاريخ.. تماما كبكاء اهل الكوفة بعد مقتل سيد الشهداء.. أليس كذلك؟

أصبحت الدموع وسيلة للتحلل من المسؤولية، بدل أن تكون وسيلة لتكريس المسؤولية، وتعميق الشعور بها.

ولكن إلى متى نجتر المآسي؟ ومن يقول إن هذه المآسي هي مآسينا؟ فهل نحن اليوم نسير في خط فاطمة الزهراء عليها السلام حتى ندعي ان مآسيها هي مآسينا، ونبكي عليها؟ إننا يوميا نقتل عشرين فاطمة، ونذرف في المساء الدمع عليها؟ لماذا نقتلها، ولماذا بعدئذ نبكي عليها؟

---

١. بحار الأنوار، ج٤٥، ص١٠٩.

٢. بحار الأنوار، ج٤٥، ص١٣٧.

٣. المصدر، ص١٣٩ .

إن هذا هو الطلاق بين التشيع الصحيح والشيعة اليوم.

وكما فاطمة عليها السلام كذلك الامام علي عليه السلام، فسيوفنا تحاربه، وتحارب اولئك الذين يمثلونه في الواقع اليومي، تحارب مبادءه السامية، وقيمه المقدسة، وقلوبنا تبكي عليه.. أيدينا تصافح معاوية بن ابي سفيان كل صباح. ومساءً تلهج السنتنا بلعن معاوية بن أبي سفيان.

وزينب الكبرى هي التي نسبيها يوميا، نعتقلها في سجون مظلمة، نعتقل مناهجها الرسالية وفلسفتها في الحياة، ونحبس نورها عن الملايين من نسائنا، ونساء العالمين، ولكننا وبدون خجل نلطم صدورنا في المساء حزنا على زينب بني علي عليه السلام.

ومن الناحية النفسية.. سيكون هذا التناقض بين السلوك والتفكير هو أكبر ضامن لبقاء السلوك المنحرف، حيث اننا نتخلص من وخز الضمير تجاه واقعنا الفاسد، بتبرير إنتمائنا الكاذب الى التاريخ الصحيح، حيث نرجو أن يشفع لنا هذا التاريخ تخلفنا عن أداء مهامنا اليومية، فترانا نبكي على الشهداء المجاهدين بدل أن نكون نحن المجاهدين، وترى أعيننا تفيض من الدمع حزنا لمآسي المجاهدين، وايدينا تقطر دما لاشتراكنا في ذبحهم يوميا..

ليس البكاء وسيلة خداع الذات، انما هو وسيلة تفجير طاقات الانسان، كما ليس لأحد الحق أن ينسب نفسه الى جيل الجهاد والنهضة، ويبكي عليهما لو لم يكن - عمليا - في خط الجهاد الأبدي ضد الظلم والفساد، وضد تحريف حكم الله.

ب - تكرار الجدليات

ألف دليل من العقل وألف دليل من النقل، جمعناهما في كتاب

كبير لاثبات أحقية علي عليه السلام بالخلافة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله).. وهل كان حق علي في الخلافة محتاجا الى هذه الادلة؟.

نهج علي هو أبسط دليل على حقه في الخلافة. مواقفه، سلوكه، متاجرته بنفسه مع الله.. كانت هي أقوى دليل على حقه في الخلافة الرسالية، ولكن يوم كان علي عليه السلام شخصا يمشي بين الاشخاص لم يكن يهدف أن يجلس مكان فلان وفلان بشخصه، بجسده، بنسبه، بصباحة وجهه، بشجاعة يديه.. كان يهدف أن يجلس نهج علي على عرش الأمة، ومن قبل في نفسية الامة.. لذلك أبى الامام علي عليه السلام أن يتوسل بالخداع، بالمكائد التي برع فيها هو كثيرا واكثر من خصمه معاوية وقال (والله ما معاوية بأدهى مني[1]) أبى أن يقول (نعم) لسيرة الشيخين يوم مد إليه عبد الرحمن بن عوف يده ليبايعه بعد مقتل عمر، أبى عرض أبي سفيان بتأييده، ضد أبي بكر.. لماذا؟ لانه أراد نهجه و لم يرد شخصه، ولو عمل بهذه الطرق كان يربح شخص علي ويفشل منهجه، وهذا ما لم يرده علي..

واليوم.. مضى الامام علي عليه السلام إلى بارئه، وأخذنا نؤيد شخصه عوضا عن منهجه، ونلهث وراء أدلة عقلية ونقلية تثبت ان شخص علي عليه السلام كان أحق بالخلافة من شخص فلان.. ويضيع الف عام في هذا الجدل..

كل ذلك، بديلا عن مبادىء علي عليه السلام، وليس وسيلة لها أو لا أقل رديفا لها..

شخص علي عليه السلام استشهد في محراب صلاته في الكوفة، وصلى عليه ربه من فوق عرشه، وجزاه عن الاسلام خير جزاء الصالحين..

---

١. نهج البلاغة، قسم الخطب، رقم ٢٠٠.

ولكن نهجه هو الذي بقي في أيدينا فأين نحن منه؟ وماذا تجدي الجدليات الفارغة في إثبات نهج علي.. بل أساساً، نهج علي عليه السلام، واضح كالشمس، إنما علينا أن نجسده بالاعمال..

وإن كان لابد من إثبات، وإن كان فينا حب عميق وولاء ثابت للامام علي عليه السلام.. إذن دعنا نجسّد مناهجه لتكون هي قبل كل شيء أكبر شاهد على سلامة تفكيرنا.. وإلاّ.. فان اللسان الذي يلهج بمدح علي عليه السلام، ثم يمارس الفتنة، ويشيع الفاحشة، ويسخر من قوم مؤمنين، إن ذلك اللسان يمسخ مدح علي، ويسيء الى صاحبه.

إن الجدليات أصبحت اليوم تبريراً للواقع الفاسد الذي نعيشه، ولنقول لانفسنا! إن لم أكن من الصالحين فاني أُحبهم:

احب الصالحين ولست منهم لأصبح منهم عند العداد

إن الله لا يضيع عنده شيئ في الحساب، وهو الذي قال - سبحانه -: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا، وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء،١٢٣-١٢٤

وقال عزوجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ الطور،٢١

ولذلك فان كل نفس رهينة بأعمالها، وليس بعواطفها ولا يشفع للانسان شيء بمثل عمله.. وقد فضح الامام الصادق عليه السلام هذا الحب الكاذب في بيتين من الشعر[1]:

---

١. بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٤.

تعصي الاله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وقال الامام عليه السلام - ايضا - (يا بن جندب! بلغ معاشر شيعتنا، وقل لهم: لا تذهبن بكم المذاهب، فوالله لا تنال ولايتنا الا بالورع والاجتهاد في الدنيا، ومواساة الاخوان في الله)[1].

دعنا نترك الجدل الى العمل، والعاطفة الى العقل..

ج - الانطواء على الذات..

لأننا الطائفة المختارة التي خصها ربها برضوانه، ولأننا على حق في حبنا لآل البيت وولائنا لهم.. فإننا - إذن - أفضل الناس، ولأننا كنا أعداءً تقليديين لكل الولاة الطغاة فلابد أن نبادل الناس العداء ونحاربهم، وننطوي عنهم، ونعتزلهم بشكل كامل!.

لو كنا شيعة حقا، لربما كان الانطواء طبيعيا.. لان التشيع ثورة رسالية، وهي رفض لمناهج الحياة السلبية، ولذلك يعاديها المستسلمون للواقع الفاسد، ولكننا لسنا شيعة الا بالاسم، والاسم أبداً لا يفصل جماعة عن أخرى، فلماذا - إذن - نحارب الناس، ونتقوقع في أقبية الماضي؟

وأعداؤنا.. لماذا يستمرون في محاربتنا؟ لماذا أصبحت، (الشيعة) عقدة دفينة في خلفية شعورهم.. بينما نحن قد ألقينا السلاح منذ دهر بعيد، واستسلمنا لواقعنا وواقعهم الفاسد؟

إن الانطواء ليس سوى جزء متخفي من شعورنا بالعزلة التي يفرضها أعداء الجهاد والمجاهدين لابعادهم عن الجماهير، وهو داء يجب التخلص منه، في حالة الجهاد والنهضة، فكيف ونحن مستسلمون؟

---

٢. تحف العقول، ص٢٣.

هذه ملامح عامة عن ممارستنا القشرية للتشيع.. أما التفاصيل فسوف، نستعرضها تباعا في أحاديث عن:

قشرية ممارسة الشعائر.. وقشرية التعامل مع القرآن.. وبالتالي قشرية تطبيق الانظمة.

الشعائر.. وسيلة أم هدف؟

الشيعي الأول كان يصلي، ويحج، ويصوم.. والشيعي اليوم هو الآخر يصلي، ويحج، ويصوم.. إنما الفارق الكبير هو أن الشيعي الأول، كان يتخذ الصلاة وسيلة للتزود بالايمان الصادق الذي يعطيه المزيد من القدرة على العمل الصالح في واقع الحياة، وبذلك كانت مقدمات الصلاة عنده (من وضوء وطهارة وارتياد المساجد و.. و..) تهيئة نفسية، فاذا به (كما حدث للامام الحسين عليه السلام) حين يقوم للوضوء يصفرّ لونه، ويخضرّ حيناً آخر، وترتعد فرائصه، فيُسأل: ما بك يا بن رسول الله؟ فيقول: أتدري بين أيدي أي جبار أريد أن أقف؟.

أما التكبير فهو يعني - عنده - مفهوما حقيقيا يمارسه ويكرسه في واقعه.. فهو يعني عنده: الله أكبر من كل طاغوت متسلط في المجتمع ومن كل جبت مستبد بالقلب.

إن كلمة (الله اكبر) لا تتناقض عند الشيعي الاصيل مع واقع حياته، إذ انه لا يعطي قيمة نهائية لشخص أو لشيء إلاّ بقدر إرتباطه بالله سبحانه، ولان كلمة (الله اكبر) لا تتناقض مع حياة الشيعي، فانه يلفظها بتفهم وحرارة ومن دون تكلف.

وحين يقرأ الشيعي سورة الحمد أو سورة الإخلاص، وحين يركع لله ويسجد ويقوم لله، ويقنت قائلا: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين.. فان اية كلمة أو هيئة يمر بها لا تناقض هي

الآخرى واقع حياته.. ولذلك فهو يهوى الصلاة وينطلق منها في ممارسة تكريس التوحيد والعمل الصالح في الحياة[1].

الصلاة عند الشيعي الحقيقي مرتبطة بالحياة، موجهة لها، راسمة دربها المستقيم.. إنها قاعدة تزوّد لما قبلها من ممارسات حياتية وقاعدة إنطلاق لما بعدها من عمل أو جهاد.

إن كل كلمة في الصلاة وكل هيئة (من ركوع أو سجود أو قيام) تتصل بحركة واقعية، وبعمل صالح.

وكما الصلاة، كذلك مقام الصلاة.. فانه محراب (موقع حرب، أو أداة حرب) إن المسجد عند الشيعي الاصيل قاعدة تزوّد، وقاعدة إنطلاق، وهو المكان الذي يربط السماء بالارض، وإذا بالمسجد مدرسة علم، ومنال هدى ، ومركز تجمع.. من أجل التعاون على البر والتقوى، ودائرة تخطيط للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإذا بالمؤمن إذا دخل المسجد يدخله ليتلقى التوجيه في حياته، ولتتوثق علاقته بالآخرين من أبناء الامة.

أما صلاة الشيعي البديل، فانك تراه كل يوم.. أما المقدمات (الطهارة، الوضوء) فانها تحولت إلى طقوس ظاهرية، همّ الانسان منها ملاحظة ايصال الماء الى جميع أعضاء الوضوء، ولا بأس إذا أراق من ماء الشرب عدة غالونات، وتأخر عدة ساعات، اما مسائل الوضوء فإنها كقصة (ألف ليلة وليلة) تبدأ ولاتنتهي.. وحين الوضوء لا بأس بممارسة الغيبة والتهمة، ولا بأس في التفكير في الغش وأكل السحت.. فما دامت غالونات الماء تصب على يدك فإن الوضوء نور. وأهم شيء يجب عليك

---

١. روي عن النبي(ص) أنه كان يقول: (جُعلت قرة عيني في الصلاة) وأنه كان يقول لبلال اذا حان موعد الأذان: (أرحنا يا بلال) بحار الأنوار،ج٧٩، ص١٩٣، لما كان يعيشه النبي من شوق لهذه الفريضة العظيمة، وهكذا كان الشيعي الصحيح.

أن تعرفه ولا تنساه هي النية، وعليك أن تتقن مسائلها بدقة، وإلاّ فقد يعني ذلك بطلان الوضوء وبطلان صلاتك.

إن صرف نصف ساعة في مقدمات الوضوء لا بأس به.. بل هو واجب، والسبب ان الوقت زائد، والأمور مقضية، والحمد لله.

أما حين يقف الشيعي الجديد إلى الصلاة فان أهم شيء عنده ان يتأكد من إمام الجماعة، ومن أصله، ومن نسبه، ومن كل أعماله الصغيرة والكبيرة، وانه هل يوجد عنده زلة في عمره، عنده أو عند أحد من أقاربه. واذن.. الصلاة فرادى خير، لإن إمام الجماعة فاسق..

وقبل الصلاة عليك أن تتقن النية[1]، وهي إخطار بالقلب، وقبل أن تتأكد كليا من صحة نيتك فلا تكبر، واذا كبرت وكانت نيتك باطلة فأعد التكبير، وعليك أن تلتف حول نفسك من أجل ان تبطل تكبيرك الأول.

وعند التكبير ليس مهما ما تقصده، إنما المهم أن تتلفظ بحروف التكبير بشكل جيد، وإلا.. فأعد التكبير مرة وعشر مرات ومئة مرة والوقت زائد، والأمور مقضية.

وكذلك القراءة.. فلا عليك أن تعرف معنى سورة الحمد ولا مدى إرتباط هذه السورة بحياتك، إنما عليك أن تتلفظ بحروف (ع -

---

١. جاء في الحديث (نية المؤمن خير من عمله) (لكل امرىء ما نوى) وجاء في آية كريمة ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ الإسراء، ٨٤ حيث فسرت كلمة (شَاكِلَتِه) بالنية.. ومعنى النصوص ان العمل لن يتصف بالصلاح، أو الفساد الا بالهدف الذي يريد الإنسان تحقيقه به، فمثلا الصلاة بهدف الطاعة عمل صالح، والصلاة ذاتها بهدف الرياء عمل طالح، وكذلك كل عمل لا يتخذ صبغة الا من خلال نية المرء. تلك النية التي تقرر ما إذا كان العمل، مفيدا او ضارا.. وبالطبع لا تعني النية التلفظ باللسان أو همسا أو إخطارا، إنما تعني الغاية التي يقصدها الفرد من وراء العمل، فلو استهدف الانسان التظاهر بعمل الخير ليعجب الناس ثم تلفظ بالقربة فلن تكون صلاته قربة الى الله بل بُعداً منه.

ض - ق - غ) بشكل لا يتحول (ع - الى - أ) ولا (ض - الى - ظ). ولا يتبدل (ق - الى - غ) أو بالعكس.

أما المسجد فان كلام الدنيا حرام فيه، وعليك أن تقبع في زاوية منه، وتجتر كلمة (لا إله الا الله) ولا بأس أن تفكر - حينئذ - في أي شيء آخر غير الله.. إذ الاذكار ليست وسائل للتذكير والانتباه، انما هي وسائل لتحريك اللسان، واستجماع الذهن للتفكير.

أما العالم الديني الذي يبحث في السياسة والاقتصاد والاجتماع وحل مشاكل الناس ومواجهة الطغاة، فانه فاسق، ومسجده مسجد الشياطين.

وكما الصلاة، كذلك الصيام، فاذا بشهر رمضان لكل انواع التسلية والترفيه، دون أن يكون للصوم فيه أي أثر إجتماعي أو خلقي يذكر.

وبذلك فُرِّغ الصوم من مسؤولياته الاجتماعية، وتحول الى قشر هو الجوع والعطش، وتغيير مواعيد الطعام والمنام.

الحج.. أصبح الاطار الفارغ

والحج لم يعد تلك الفريضة الروحية المادية التي تخلق زخما جديداً في ضمير الامة كل عام، وفرصة لا عادة التقييم في كافة البرامج الحياتية..

لم يعد الحج مؤتمراً إسلامياً يقرر مصير (الخليفة) الثالث عثمان، وينحيه من الحكم، كما يقرر - من قبل - مصير المشركين وينحيهم من جزيرة العرب بقراءة سورة (البراءة)..

لم تعد (عرفات) تحتل مركز (مجلس الامن) الاسلامي أو (الأمم المتحدة) الاسلامية، و لم تعد (منى) (الكومنولث الاسلامي) أو

(السوق الاسلامية المشتركة).

كما لم تعد المناسك الآخرى تعني معانيها.. فلا الطواف يهدف بيان معنى القربان والتضحية، ولا السعي يهدف تكريس معنى السعي والعمل من أجل الله، ولا الاحرام يرمز الى معنى التقوى، والإبتعاد عن كل المحرمات وفق حكم الله، ولا التلبية تعني إعادة البيعة مع الله لتطبيق شرائعه، ولا.. ولا..

إنما الباقي من الحج مجموعة ممارسات وقراءات تتخللها أعمال غريبة يجب التعبد بها دون التفهم لها ولمعانيها، وبعيدة عن كل الممارسات في حياتنا اليومية، ولذلك حين يعود الحاج الى بيته، لم يحمل معه زاد الدنيا، كما لم يفلح بالحصول على زاد التقوى، كما أمر بهما الله تعالى في كتابه[1].

إنما حمل معه (إسم) الحاج، ولا يحق له أكثر من هذا الاسم، اذ انه مارس مجموعة اسماء، وكان نصيبه منها إسما لا أكثر..

والحاج لم يعد في عرف الجماهير، ذلك الذي يحمل معه سلوكية جديدة تعطيه المزيد من الثقة بعلمه وعدالته، إنما - وفي بعض الاحيان - أصبح الحاج عند الناس ذلك الرجل الذي عرف كيف يحور معاني الدين فيستخدم ذلك في مصالحه.

---

١. ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ البقرة،١٩٧

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ* ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الحج،٢٧-٣٠

٤

هل القرآن .. مجرد حروف بلا معاني؟

تتغذى الامة بمصادر ثقافتها، فاذا انقطعت عن تلك المصادر فسوف تنقطع - بالطبع - عن الأصالة والإستمرار.

والمسلمون لم يعودوا يفهمون لغة المصادر الثقافية، وانفصلوا عنها، وانقطعوا - بذلك - عن مصادر ثقافتهم.

صحيح ان القرآن نزل بلسان عربي مبين، وكذلك أحاديث السنة الشريفة والادعية والزيارات، وخطب نهج البلاغة وما اشبه، وصحيح أننا عرب ننطق بلغة الضاد، ولكن الاصح هو أن سطحية الرؤية التي ننظر من خلالها الى الاشياء، تحجبنا عن الاتصال بروح القرآن الحكيم والسنة الشريفة، وروح الادعية والزيارات والاذكار الدينية..

وفرق بين أن لا تفهم لغة أو تفهمها بشكل خاطىء.. بل الثاني أدهى وأمرّ، وهو الذي حصل فينا - وللاسف -.

إننا نفهم القرآن والرسالات الاخرى كحروف مطلوبة بذاتها، وإذا فهمنا معنى منها، فاننا سوف ننظر الى ذلك المعنى بالذات منقطعا عن أصله وسياقه وروحه، وبذلك نميت الكلمة، ونميت مفهومها، لو بقي لها مفهوم، والسبب؟

السبب، إن فهم أية لغة بحاجة إلى أن تكون في الاجواء المناسبة لها، أترى هل من الممكن أن تفهم لغة الرياضيين، أو علماء الفلك أو الكيمياء أو.. أو.. من دون أن تعيش في أجواء تلك العلوم؟

كذلك لا يمكن فهم القرآن، إلاّ إذا إرتفع المرء إلى مستوى لغته، وبالضبط إلى جو الرسالة التي عنها ومن خلالها ينطلق القرآن.

ولأننا نعيش حياة الوارثين للرسالة من دون فهم أو قناعة ومن دون إحساس بالحاجة، فاننا لا نفهم القرآن، وماذا تعني آياته؟ وأية مشاكل تريد إنهاءها ومعالجتها؟ تماما كالذي ورث بيتا بُني من أجل إشباع حاجات لا يحس بها، وتوفير ضرورات لا يفهمها، فاذا به لا يستفيد من مرافقها، بل يزعم أنها زينة ونوافل، كذلك القرآن جاء ليحل مشاكل، ويشبع حاجات، ويوفر ضرورات.. إلاّ أن أمة التخلف لا تشعر بالمشاكل، ولا تتحسس الحاجات، ولا تفهم الضرورات، ولذلك فهي لا تستطيع معرفة القرآن.

ولاننا لم نفهم القرآن، اتخذناه رسما نتلهى بقراءته، فاذا بنا نصرف مزيدا من الوقت (الفائض) في معرفة (القراءات السبعة)، وتحديد كمية حروف القرآن، وتعيين (خواصّ السور) فسورة (يس) للاموات، وسورة (الرحمن) للاحياء، وسورة (المائدة) للرزق، وسورة (الانعام) للكربات، وسورة (البقرة) للحليب وسورة (آل عمران) للعمارة.. و.. و..

وإذا بالمقرئين يتغنون بآيات القرآن، ويجعلونها متعة للمكروبين، وتسلية للفارغين.

وإذا بالتفاسير تنبش أصول الكلمات، وتحوّل القرآن - حينا - إلى موقع مباراة في علوم الصرف والنحو والفقه واللغة، وحينا الى ساحة معركة بين سيبويه ونفطويه والاخفش وابن العصفور، واذا تجاوز التفسير كشفيات (الكشّاف) في اللغة، وقع في وهميات الرازي في الفلسفة.

وجاء المفسرون الجدد يجعلون القرآن كتاب علوم، ومرجع

اكتشافات، ويستنبطون من كل لفظة في القرآن مفتاح علم من العلوم.

أما في حقيقة الأمر فإن القرآن كتاب رسالة. كتاب حضارة. كتاب الانسان. فاين تذهبون؟ ولكن القشريين لا يفهمون، إنهم اتخذوا القرآن رسما و لم يعرفوا أنه لغة الحقائق ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد،٢٤

وإذا اهتدى واحد منهم سبيلا لفهم القرآن، أراد أن يفهم منه الآيات التي تكرس مصالحه في الحياة، أو لا أقل لا تعارضها، وترك سائر الآيات أو أوّلها حسبما شاءت أهواؤه، وبذلك نتج الفهم التجزيئي للقرآن الحكيم، ذلك الامر الذي عارضه القرآن بشدة وأوعد القائمين به أشد العذاب، وقال.. ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحجر٩١-٩٢

إذا أراد التجزيئي فهم آية، اقتطفها من سياقها وأراد أن يفهمها لوحدها، وذلك لكي تكون له مطلق الحرية في التأويل فيما إذا عارضت أهواءه.

إنما القرآن كلٌّ لا يتجزأ، وفهمه لن يكون إلاّ بمراجعة كله أو ترك علمه لاهله..

القرآن بصائر وهدى

جاء في القرآن أن القرآن بصائر وهدى[1]، والبصيرة هي الرؤية، هي المنظار الذي يوضح ويبلور النظر إلى الاشياء، هي الوسيلة إلى الفهم والعقل، والسبيل الى السعي والعمل.

---

١. قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الجاثية،٢٠ ﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف،٢٠٣

والبصيرة - بالتالي - هي رمز، ونحن نختار هذه الكلمة (الرمز) لأنها أقرب الى ادبنا الحديث، ورموز القرآن، تماما كأية رموز اخرى لا تستطيع أن تؤدي رسالتها إلا إذا اتخذت سبيلا الى ما وراءها من حقائق..

أنظر إلى قصة آدم، يفصلها القرآن في عدة مناسبات لتبيان طبيعة الانسان، وكيف يهبط الى مستوى المعصية، ثم يتوب ويسمو - مرة اخرى - بعد أن يلقى جزاءه العادل في الدنيا، والآخرة..

إنها ليست قصة شخص تاريخي كان يُدعى (آدم) وزوجته التي كانت تُدعى (حواء). ليست نظرية علمية لطريقة خلق الانسان في الارض، وإنما هي قصة الانسان كانسان.. وآدم - هنا - رمز للذكور جميعا، كما أن زوجه حواء رمز للنساء جميعا..

فاذا اتخذنا قصة آدم رمزا، فهمنا الحقائق التي وراءها، أما إذا اتخذناها حقيقة، بدءنا نبحث عن آدم هذا.. في اي مكان كان؟ ومتى كان؟ وأية أرض هبط عليها؟ أكانت في الهند، أم في السند؟ أم في افريقيا؟ وبأية لغة تكلم؟ وكيف زوّج إبنته لإبنه ليستمر النسل؟ ثم ان الشجرة التي نهي عنها، هل كانت شجرة الحنطة أم العنب أم كانت شجرة الحسد؟.

دعنا نستعرض آيات هذه القصة لنجعلها نموذجا لاسلوب القرآن الرمزي في تبيان الحقائق، ثم نموذجا لفهمنا القشري لآيات الكتاب.

يقسم القرآن القصة إلى ثلاثة فصول: فصل عن فلسفة التمرد في حياة الانسان، والتي تختصرها قصة إبليس، وفصل عن فلسفة العصيان وتختصرها قصة آدم وزوجه، وفصل اخير عن العبرة وراء تلك القصتين التي تتصل بحياتنا جميعا..

فلسفة التمرد في حياة الانسان

يقول القرآن الحكيم:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ.

قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ.

قَالَ: أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ، خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ.

قَالَ: فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ.

قَالَ: فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

قَالَ: إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ.

قَالَ: فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.

قَالَ: اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأعراف،١١-١٨

وينتهي الفصل الاول من القصة عند هذا الحد ليعطينا عدة دروس:

أولا - في مصير المتكبر، ذلك الذي يفتخر بأصله، ويزعم أن إنتماءه إلى عنصر جيد (النار - مثلا) يجعله أقرب الى الله، ويعفيه عن مسؤولية الطاعة ويؤمنه الجزاء العادل..

ثانيا - في جزاء المتكبر الهارب عن مسؤولية الطاعة.. إنه الصغار العاجل، والنار في النهاية..

ثالثا - إن صاحب التكبر يسعى ليشرك الآخرين في عاقبته

السوئى، فيدعوهم الى النار..

رابعا - وبذلك نعرف ان الشيطان سيأتينا من كل الجهات، وسوف يستخدم كل وسيلة ممكنة لاغواء الانسان، فعليه يجب أن يكون البشر في قمة اليقظة لكي لا يتورط في شرك ابليس.

إن هذه الدروس والعبر التي تشكل رؤى شفافة يستطيع الانسان أن يبصر من خلالها دربه في الحياة، ترى كيف يحورها القشريون الذين راحوا يبحثون عن حسب إبليس ونسبه وعشيرته وأبنائه وكيف يتناسلون، واين هم الآن، وكيف يُعذب إبليس بالنار وهو مخلوق منها، وكيف أمهل الله إبليس وهو يعلم أنه راح يغوي الناس، ثم لماذا السجدة لآدم؟ والف سؤال فرعي هامشي آخر مما أشغل بالهم.

- ٢ -

فلسفة العصيان

أما عن الفصل الثاني فيقول الله سبحانه:

﴿.. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا، من سَوْءَاتِهِمَا، وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ.. أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ.

فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ.

قَالاَ: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف،١٩-٢٣

فلسفة الاثم، ودواعيه، وغروره، ومصيره.. هي بعض ما يتحدث عنه هذا الفصل، حيث يبين بأسلوب الرمز:

١ - أن الحرام لا يشمل كل المتع، بل بعضا منها وهو قليل جدا بالنسبة للطيبات، حيث يقول. ﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ مما يدل على أن القاعدة هي الحلية، والحرمة شذوذ واستثناء فيها.

٢ - إن قلب البشر نظيف بشكل طبيعي، ولا يجنح الى المحرمات، إنما الشيطان - ذلك العدو الابدي - هو الذي يزرع في القلب حب المحرمات، ويوسوس للانسان حتى يدفعه اليها.

٣ - وفي البدء يخلق الوسوسة والتردد، ثم يزيد غروره بالحكم على أن الحرام لا يختلف كثيرا عن الحلال، ثم يصعّد تضليله بالقول بان الحرام هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الاحلام البشرية في الخلود والعظمة، ويختم قوله بالتأكيد على هذه الاكذوبة الكبرى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

٤ - إن هذه سبيل كل الآثمين في الحياة، يبدؤون قبل كل شيء بالوسوسة، وينتهون الى وضع يزعمون فيه أن السبيل الوحيد الى المجد هو الحرام، فعليه لا بد أن نخشى بداية المنحدر (وهي الوسوسة) لكي نتجنب الهاوية.

٥ - إن الانسان لا يرتكب الحرام ليوفر لنفسه ضرورات حياته من الطعام والمأوى والجنس، إنما بدافع إشباع طموحه في المجد والخلود، فآدم كان في الجنة يأكل منها حيث يشاء رغدا وكانت الى جانبه حواء، يسكن إليها وتسكن إليه، ولهم في الجنة مستقر وأفضل

مأوى.. إنما حب العظمة والخلود هو الذي مَكَّن الشيطان من تضليلهما. ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

٦ - ثم القضية تُختصر بالغرور، إذ الحرام لن يكون معراجا إلى العظمة أو الخلود، إنما العكس هو الواقع، إذ حين ذاقا الشجرة بدأ العد العكسي لهبوط نجمهما.

٧ - أول ما حدث هو ما حذَّر ربنا منه في البدء.. لقد قال إن هدف الشيطان إنما هو إظهار سوءاتهما، وفعلا بدت لهما سوءاتهما.

ماذا ترمز هذه الكلمة؟

الجواب: إن في النفس البشرية جوانب عجز لا يستطيع التخلص منها، من طمع وجهل وسذاجة وتسرع وتمرد.. والشيطان يقوم بدور الفتيل في تفجير هذه النوازع السيئة، بينما التقوى هي كساتر وارف يخفي سوءات البشر، كما اللباس يخفي سوءات الإنسان، وقد تجسد، هذا الواقع حين ذاق ابونا وزوجه الشجرة، فاذا بهما مجردين من اللباس، ويحاولان أن يسترا أنفسهما باي شيء ممكن، حتى إذا كان ورق الجنة: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾

إن السوءة هي كل شر لا بد منه، ولا بد من ستره والحرام وسيلة لاظهاره، والانسان مدعو الى تجنب الحرام، لكي لا تظهر سوءته.

٨ - ولا يُترك الانسان عند هذا الحد، ليغرق في بؤرة اليأس، بل تُفتح أمامه أبواب التوبة، ويأتيه النداء الرقيق ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ ويتوب ويقول ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾

إن هذه هي رموز القصة، كما ينبغي ان يفهمها الرسالي، بيد إن القشري الذي يهتم بالرمز كحقيقة، وبالوسيلة كهدف، هذا القشري يسعى لمعرفة آدم: متى كان؟ هل قبل تسعة آلاف سنة أو أكثر؟ وأين كانت جنته التي هبط منها؟ وما كانت حقيقة الشجرة التي نُهي

عنها؟ هل كانت شجرة التين، أو الزيتون أم العنب أم الحنطة؟. وعن هذا الشيطان: كيف دخل الجنة؟ في جلد حية أم تحت ريش الطاووس؟ ثم كيف طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة؟ وبالتالي هل وُفقا للحصول على ورقة التين؟ وغير هذه من البحوث التي تشترك في إبعاد النظر عن الحقائق التي ترمز إليها الآيات والتي لا بد أن تتحول إلى (مناظير) لرؤية الاشياء من خلالها.

- ٣ -

معراج العظمة ومنحدر الرذيلة

ثم ان هذه الرموز هي التي يبينها القرآن الحكيم في الفصل الاخير من القصة، حيث يقول:

﴿قَالَ: اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين.

قَالَ: فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ، وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَى، ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ، يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا، لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ، مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾الأعراف،٢٤-٢٧

وبهذا الفصل ينهي القرآن (القصة - الرمز) ويوفر لنا بصائر واضحة تهدينا لمعرفة خفايا النفس البشرية، وفلسفة الحلال، وفلسفة الحرام، وفلسفة التوبة، ومعراج العظمة، ومهبط الرذيلة.

ولأن القرآن رموز، ولان الرمز لا يُفهم إلاّ بشروط معينة، فإذا

أردنا أن نفهم القرآن كان علينا توفير تلك الشروط التي هي في الواقع، شروط فهم اي رمز:

١ - أن يستثير القارىء عقله به، ليتفقه فيما وراء آياته من رموز باطنة. إن تعطيل دور العقل في القرآن، أشبه بتعطيل العين في المنظار، زعما بان وجود منظار قوي بيد الانسان سيغني عن البصر، كلا.. ان احدهما مكمل للآخر، وجيل التخلف عطّل العقل بحجة أن كتاب الله أسمى من أن تناله العقول، كما فعل جيل التخلف في الاديان السابقة، حيث عطّلوا كتبهم بحجة عظمتها، وكما فعلت الفلسفة الاغريقية والغنوصيون حيث عطلوا دور الله في الحياة بحجة أنه أعظم وأكبر من مباشرة هذه الشؤون.

وقديما قال الامام علي(عليه السلام):(قُرِنت الهيبة بالخيبة)[1] وحين تهيّب جيل التخلف القرآن، وعظّمه على حساب عقله، صغر بذات النسبة عقله، وضعف على حساب فهمه القرآن، وبالتالي على حساب القرآن.[2]

و لم يبق من القرآن لديهم إلا رسوم[3]، زاعمين أن الاسلام يريد

---

١. نهج البلاغة، قصار الحكم،٢١.

٢. تاريخيا كان القرآن في بداية نزوله، كتاب رسالة زوّد الامة برؤى واضحة، وايقظ فيهم العقل والمسؤولية، ولكنه اتخذ - بعدئذ - سلاحا سياسيا في الصراعات الداخلية التي شهدتها الامة، حيث طفق كل فريق يستفيد من القرآن وفق اهوائه واتجاهاته. ولمقاومة هذا الاستغلال المشين لكتاب الله والرسالة قاد الائمة المعصومون(عليهم السلام) حملة كبيرة ضد تفسير القرآن بالرأي، وقالوا فيما قالوا (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)، وذلك ليبعدوا دور المصالح والآراء في تفسير القرآن، وليفسحوا المجال بالتالي لتفسير القرآن بالحديث وبالقرآن ذاته، وبالعقل السليم أيضا.

٣. في الحديث - عن اوضاع زمان التردي - قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(سيأتي على أمتي زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا إسمه..)** بحار الأنوار، ج٢، ص١٠٩، ح١٤، وهذا - تماما- ينطبق على جيل القشرية.

منهم ذلك، واتخذوا من بعض الاحاديث حجة على تعاملهم مع القرآن كالحديث القائل: (من قال في القرآن بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار)[1] ناسين أن القرآن جاء ليفهم وليتدبر فيه الناس، وليكون كتاب هدى للعالمين، فكيف لا يجوز فهمه وتفسيره؟ نعم، ليس التفسير المطلوب هو تفسير القرآن بالآراء الخاصة المتأثّرة بالأهواء، بل بالعقول النيرة المجردة عن أغلال الهوى والتقليد.

ونود أن نسجل ههنا كلمة مسؤولة، ونعلن صراحة أن تعطيل القرآن، هو بمثابة إنكاره رأسا.

٢ - يجب تطبيق آيات القرآن على الحياة تطبيقا حيا، والاعتقاد بان لكل بصيرة فيه أشخاصا تتحرك، وأحداثا تقع يوميا، فهي كالشمس تشرق كل يوم على نهار جديد،وحياة جديدة، واناس واشياء وحوادث حية، كذلك القرآن يطلع علينا كل يوم ليشرق على اناس واشياء وحوادث ليكشفهم وليضيء لنا خباياهم، ويبين طريقة التعامل معهم.

لقد نزلت آية الشجرة الملعونة في بني أمية، ثم الشجرة الطيبة في آل البيت عليهم السلام، وذهب بنو امية، واستشهد آل البيت، فهل انتهت تلك الآيات؟ كلا إن لعصرنا اليوم بنو أمية وآل بيت تنطبق عليهما آيات القرآن أيضا.

بهذا التطبيق الحي للقرآن يكتسب القرآن حرارة وحركة، ويكتسب الانسان رؤية وهدى، أما في غير هذي الحال، تتسمر آيات القرآن على أحداث أو أشخاص ماتت قبل أربعة عشر قرنا، ولا يعني القرآن آنئذ شيئا بالنسبة لنا.

ان جيل التخلف عَوَّض ذاته عن الجهل بزمانه، بمحاولة ازدياد

---

٢. بحار الأنوار، ج٨٩، ص١١١، ح٢٠.

المعرفة بتاريخه، أو بالاحرى بتاريخ حقبة معينة من ماضيه، فاذا به ينبش القبور، ليحيي من قضوا أجلهم، ويصرف المزيد من وقته فيمن نزلت آيات القرآن، هل في زيد ام في عبيد، وتعال اسمع القيل والقال، بينما يترك البحث عمن تنطبق عليه حاليا آيات القرآن وذلك خشية تطبيقها، فمثلا.. تخوفا من تطبيق آية الشجرة الملعونة عليه او على من لا يشاء، يحاول إلصاقها ببني امية الذين اقتلع الله شجرتهم الملعونة قبل أكثر من الف عام، والحمد لله رب العالمين.

صحيح إن القرآن نزل في قضايا حية عاشتها الامة يوما بيوم، ولكن الاصح هو أن تلك الطريقة من تنزل القرآن كانت لحكمة وهي ارتباط الامة بالاحداث من خلال منظار القرآن لكي يبصرونها في ضوئه وعن طريق مكبراته ومجاهره[1]، وان تلك الحكمة هي التي تدفعنا للمطالبة بربط القرآن بالاحداث، لنكون أصفى نظرا، وأوضح رؤية للاحداث.

٣ - أن لا يقرء الواحد منا القرآن بذهنية مشحونة بالآراء والنظريات والاهواء والمصالح.. فيحاول تركيبها على القرآن وتفسير آياته بها.. إنما يسعى ليكون تلميذ القرآن الحكيم، ذلك التلميذ الفارغ الذهن المستعد لقبول الحق، والتوق الى المعرفة الصحيحة.

والقرآن لا ينفع جيلنا المتخلف ما دام يقرؤه من خلال: أفكاره السلبية التي ورثها من ماضيه، فاذا به لا يبصر في القرآن الا تلك النقاط التي تدعم أفكاره، وتكرّس رواسبه.

كفانا إفتراءً على الله، وتحريفا لقرآنه.. دعنا نطهر أنفسنا ساعة

---

١. اشار القرآن الى هذه الحكمة حيث قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ الفرقان، ٣٢-٣٣

من نهار عن رواسب العصور المتخلفة.. فلعل القرآن يشرق على عقولنا نورا وهدى ويقظة.

٤ - وأن لا يقرء القرآن بديلا عن العمل، وإنما سبيلا إليه فقراءة القرآن، وتكرار آياته والتدبر فيه، واستثارة العقل به وفهمه.. كل ذلك لن يغني عن العمل والممارسة الخارجية في صعيد الواقع شيئا، اذ العمل هو الهدف، والقرآن وسيلة له، وسبيل إليه.. وحين إنشغل المسلمون بالقرآن، واعتبروه هدفا، ووقعوا في آياته بحثا وتشريحا، وقضوا اوقاتهم في تلاوته وحفظه، وتصحيح قراءته.. آنئذ إنشغلوا عن العطاء، فشملهم التخلف، بل انشغلوا آنئذ عن القرآن ذاته، إذ القرآن الذي نزل من السماء كان سبيلا وصراطا وطريقا و.. و.. وبالتالي كان وسيلة، بينما القرآن الذي قرأه المسلمون ارادوه غاية ونهاية وهدفا.. وبينهما ما بين السماء والارض، ولذلك لم يجدوا القرآن الحقيقي، و لم يفهموه، ولن يفهموه ما داموا كذلك.

القراءات البديلة

وليس القرآن فقط.. بل كل ثقافة تصبح بديلة عن العمل فهي لا تنفع شيئا، بل ستكون عقبة في طريق البناء.. ونحن لم نحوِّل القرآن وحده من سبيل الى العمل، الى غاية في ذاته.. بل جعلنا كل الثقافات التي بايدينا كذلك، فكانت أشبه شيء بحقل عقيم، لا يعطي ثمرا.

فالادعية الدينية - وفي مقدمتها (الصحيفة السجادية) التي كان لابد أن تكرس في أنفسنا ضمير التقوى والخشية من الله.. والتطلع الى المستقبل الافضل.

والزيارات التي كان لابد أن تربط بيننا وبين قادتنا الطاهرين، لكي نستلهم منهم العزيمة والجهاد والتضحية.

والتراث الثقافي الذي خلفه المعصومون وجيل المجاهدين والذي يأتي في مقدمته (نهج البلاغة) والذي كان لابد أن يغني فهمنا للقرآن، كل هذه الثقافات التي كانت وسيلة الى السعي والعمل، حَوَّلناها الى هدف في ذاته.. فأصبحنا نزعم أن لمجرد قراءة الادعية والزيارات تأثيرا غيبيا في أوضاعنا في الدنيا أو في الآخرة.. فمن قرأ زيارة عاشوراء اربعين يوما فسوف تقضى حاجاته في الدنيا والآخرة، لا فرق بين ان تكون هذه القراءة بتفهم او من دونه، ومن اجل العمل او عدم العمل بمعانيها، وهي معاني أنبل ثورة رسالية في تاريخ الاسلام.

وكلمة اخيرة..

إن قشرية التعامل مع الحياة حين إنسحبت إلى مصادر التوجيه كانت نتائجها السلبية خطيرة جدا.. إذ فصلت الامة عن تلك المصادر، وعَطَّلت طاقاتها التوجيهية الضخمة..

وبعد.. ترى أية أمة هذه التي لاتستطيع الاستفادة من مصادر توجيهها؟ وماذا تبقى لها من عناصر الامة؟.

٥

الاحكام الشرعية تطبيق رسالي

لعل أكثر الناس لا يعرفون أن هناك إرتباطا وثيقا بين الروح الرسالية ونوعية تطبيق الانظمة الاجتماعية.. إذ قد تكون أطر الانظمة ذاتها تُمارَس في الامة، ولكنها تختلف في المحتوى بين التطبيق الرسالي والتطبيق القشري.

ولكن هذه حقيقة يشهد لها إزدياد تمسك الأمة بالانظمة كلما إنحدرت نحو القشرية، لانها تغدو - آنئذ - بلا صعوبة، إذ أنها مفرغة من محتوياتها الحقيقية، وتصبح بديلة عن العمل الرسالي، لذلك نلاحظ إرتباطا طرديا بين نسبة قشرية الامة ونسبة تضخم الاهتمام بالانظمة الإجتماعية.

والفارق الرئيسي بين الانظمة ذات المحتوى الرسالي والاخرى غيرها، هو أن الاولى هي قنوات لاستيعاب الروح المبدعة النشيطة، ثم أنها مرتبطة بالهدف الاساسي الذي تستهدف الامة تحقيقه في الحياة، وهو: (خلق أمة مؤمنة، ذات رسالة خيِّرة الى الامم الاخرى، وبانية حضارة متقدمة) فترى أن كل نظام من الانظمة يحظى من الاهتمام بقدر قدرته على تحقيق هذا الهدف.. فاذا عجز كليا سقط النظام وجاء بديله.

لذلك فالانظمة ذات المحتوى الرسالي تتسم بالسمات التالية:

١ - إن هذه الانظمة مترابطة في خط واحد، وهو تحقيق الهدف

الاسمى للامة الاسلامية، وللانسان المؤمن في الحياة.

٢ - إن هذه الانظمة متكيفة مع العصر.. فكلما عجز نظام عن تنفيذ واجب الامة الاساسي سقط آليا، لان الامة تعرف واجبها الرسالي وتهتم به اكثر من اهتمامها بقشور الانظمة.

٣ - إن هذه الانظمة إطارات لاستيعاب النشاط والابداع، ولذلك فهي ليست بديلة عن النشاط والابداع، ولا عقبة في طريقهما، وبذلك كلما أصبح نظام حجر عثرة أمام تقدم الامة إلى الامام أزيح واستبدل بالقوة.

٤ - إن الامة لا ترتبط باطارات هذه الانظمة بشكل أعمى، إنما بما لكل منها من ملاكات وحِكَم.. فاذا حرم الكذب وكان ملاك الحرمة وحكمتها الإضرار بالانسان، ورأت الامة أن كذبة تنفع الناس وتصلحهم، كانت تلك الكذبة فريضة، كالكذب في إصلاح ذات، البين لان عدمها هو الآن يضر بمصلحة الامة.

التطبيق السطحي للانظمة..

هذه هي سمات التطبيق الرسالي للانظمة.. دعنا الآن نلقي نظرة على التطبيق السطحي، والذي يتسم بنقيض تلك السمات الاربع وهي:

١ - الاحكام الشرعية تطبيق قشري..

لا تفهم الامة وجود صلة بين العبادات والمعاملات، او في المعاملات بين العقود والايقاعات، وبين الحدود والديات، وبين الاطعمة والاشربة من جهة، والسبق والرماية من جهة ثانية.

إن الفهم التجزيئي ميزة تتمتع بها كل امة متخلفة، إذ أنها لا تشعر بهدف سام للحياة، وهذه الميزة حين تنسحب على الانظمة تسبب الفوضى وبلبلة الرؤية. وهي التي حدثت في الانظمة عند الامة الاسلامية، اليوم.

هل هناك سمات عامة للامة المسلمة في تركيبتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واهدافها الحضارية، وعلاقاتها الاممية، وفي رسالتها واهدافها في الحياة؟[1]

هل هناك أصول عامة تتفرع عنها كل أبواب الفقه. وهي التي تستهدفها الشرائع الدينية، وتريد تحقيقها وتكريسها من العدالة الاجتماعية، والحرية، والرفاه و.. و..؟

وبالتالي.. هل هناك قيم ثابتة يستطيع الانسان فهمها والانطلاق منها في معرفة الدين والدنيا؟

بالطبع.. يوجد لدينا كل ذلك. وبالطبع إن الامة التي لا يوجد لديها شيء من ذلك لا تسمى امة، ولكن.. اين هي هذه الذخائر؟ في أي غيهب دفناها، وفي اية بئر عميقة أخفيناها؟ حقا، إنها في غيهب القشرية، وفي بئر الجهل العميق.

إن النظرة القشرية هي التي عملت كالسكين في تقطيع الجسد الواحد للشريعة، فاذا بالايمانيات والعقائد إنفصلت عن الاخلاقيات والآداب.. وإذا بهما إنفصلتا عن الاحكام.. والاحكام بدورها انفصلت عن بعضها[2]، وزُهقت روح الجسد الواحد، ومات الجسد.

---

١. توجد لدى الائمة رائعة عظيمة في هذا الحقل.. هي: رسالة الحقوق للامام علي بن الحسين(عليه السلام) كما توجد روائع اخرى عن الشخصية المؤمنة في وصايا النبي والامام علي والامام جعفر الصادق عليهم جميعا صلوات الله. ومدرجة جميعها في كتاب الروضة من (بحارالأنوار) الا انها مهملة بشكل عام وللاسف، لعدم شعور الامة بالحاجة إليها نظراً لرؤيتها القشرية..

٢. قالوا: لتحقيق القدرة على الاستنباط والوصول إلى درجة الاجتهاد، لا بد أن يعرف المرء اللغة وعلوم العربية، وعلم الاصول.. وشيئا من علم الدراية والرجال، وشيئا من البلاغة والادب.. أما تاريخ الاسلام، وتفسير القرآن، والعقائد، والفلسفة الاسلامية، وعلم الاخلاق، و.. و.. فليس من الضروري أن يعرفها الانسان ليصبح فقيها مستنبطا.. لماذا؟ لان الفقه لا يرتبط بالتاريخ، ولا يرتبط بالفلسفة الاسلامية، ولا بالاخلاق الاسلامية ولا.. ولا.. انظر كيف فرقنا ديننا وقطعناه تقطيعا..

٢ - الاحكام الشرعية جمود وتقليد..

وحين تتفشى فينا النظرة القشرية، ونهتم بجسد الانظمة، بدون روحها، وتحدث فينا الحرفية التطبيقية.. حينئذ لا نهتم بفهم العصر وقياس الانظمة به للتعرف على ما يجب ان يبقى منها، وما يجب أن يستبدل[١]، ويتحول الاستنباط الى مجرد تغيير وتطوير مسائل فرعية، وذلك تبعا لاختلاف (السليقة) أو لنوع بسيط من التقدم في فن الأصول، أو لمفاجئة في اكتشافات بعض الحقائق من علم الرجال.

أين الحوادث الواقعة؟ أين المسائل الحديثة؟ وأين نظرة الاسلام في الاقتصاد الرأسمالي الحر، والاقتصاد الاشتراكي الموّجه؟ وأين نظرته في مختلف تيارات علم النفس وعلم الاجتماع؟ وأين نظرته في المشاكل الدولية والحروب والازمات الراهنة؟ وبالتالي أين نحن من عصرنا ومن حضارته العملاقة التي أخذت تجرف الماضي وتخلق واقعا يتجدد في كل يوم؟ ألا تكفي هذه الرياح العاصفة ان تحرك.. بِرْكَتَنا الراكدة ونحن فيها كتلك الضفدعة التي زعمت ان الحياة تتلخص في بركتها الصغيرة؟

أين العلماء الذين هم ورثه الانبياء؟ أين الفقهاء الذين هم حجة الائمة علينا؟ أين رأي الدين ووصية القرآن - ذلك الكتاب الذي لم يدع صغيرة ولا كبيرة - في شؤون الحياة؟

الجمود، كأنه سلسلة جبال (هملايا) يجثم فوق كل شيء منا لماذا؟ والى متى؟

حقا.. إن اليوم الذي يُنظر فيه الى الدين كرؤية متكاملة ذات اهداف رسالية.. هنالك ستتغير منه الكثير، حتى يزعم الناس أنه دين

---

١. بالمناسبة ليس من المفروض في أوساط القشريين أن يكون الفقيه المستنبط عارفا بزمانه.. لان الفقه ثابت لا يتغيّر، ولا يتدخل في متغيّرات الزمن!.

جديد[1].

٣ - أحكام أم أغلال؟

ولأن الأنظمة فُرِّغَت من حِكَمها وملاكاتها، وبالتالي من وظيفتها المتمثلة في استيعاب النشاط والابداع.. تحولت الى عقبة في طريق النشاط والابداع..

فاذا بهاجس الحرام يلاحق كل مسلم، لكي لا يفكرفي الابداع، أو ليس الابداع بدعة؟ أو ليست البدعة ضلالة؟ وكل ضلالة في النار.. اذن. دعنا نستريح في كهف التقليد، ولا نُورِّط أنفسنا في البدعة - الحرام.

صحيح إن البدعة هي - كما سبق الحديث حولها - التغيير الجذري في الدين، ولكن سوء فهم أو سوء إستخدام الكلمة سحبها إلى كل إبداع جديد، لان شر الامور محدثاتها.

وإلى عهد قريب.. كانت بعض الأوساط الدينية تحارب كل شيء جديد، زاعمة أنه مخالف للدين، كما لو أن الدين هو كل شيء عتيق مهترء، ولذلك كان على الجهات الأخرى أن تحارب الدين لسوء استخدامه عند المؤمنين به.

وكثير من العقود التي يحتاج إليها تطور الحياة حوربت بحجة أنها حرام.. لماذا؟ أوليس الله قد قال..(أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ)؟. أولا تعني الكلمة أن كل عقد تراضى عليه الطرفان ووافق عليه العقلاء هو صحيح، ويجب الوفاء به؟ ولكن القشريين إخترعوا نظرية تقول إن كل عقد كان في عهد الرسول هو العقد الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه..

---

١. جاء في الحديث ان الامام الحجة(عليه السلام) يأتي بدين جديد (أي يتصور الناس أنه جديد).

وكل العقود التي ثبت وجودها في عهد الرسول كانت أربعة عقود فقط.

بهذه النظرية حاربوا عقد التأمين، خصوصا التأمين على الحياة وعقود المعاطاة التي لا تُذكر فيها الالفاظ، وحرموا (حق الخلو أو السرقفلية) وأباحوا حقوق الطبع والتقليد والنشر.. ولم يعرفوا معنى (لحق الاختراع) و(حق الماركة المسجلة) و..

وفي الجو الموبوء بخوف الوقوع في الحرام يتجمد نشاط الانسان حتى ولو كان باندفاع السيل، اذ كيف تبحث عن عمل حلال وكل شيء من حولك حرام؟ ولا تستطيع أن تعمل بعيدا عن الدنيا؟..

إن دراسة العلوم الجديدة حرام.. حسنا، والتعامل مع البنوك حرام.. حسنا.. وكل العقود الجديدة حرام.. حسنا.. وعليك أن تكتسب من الحلال.. هل يمكن ذلك؟

لم يفكر القشريون إن للاسلام أهدافا كبيرة يجب تنشيط الامة لبلوغها، ويجب التضحية ببعض القيود البسيطة على العمل لكي تتمكن الامة من سرعة الخطو، وبالتالي.. لم تفهم الامة قاعدة (المهم والأهم) لانها كانت فاقدة للهدف الاسمى الذي يحدد المهم والاهم[1].

٤- أحكام بلا حكَم..

وانتشرت القشرية في الاحكام كما تنتشر الارضة في الخشبة، فتفرغها من كل لباب، حتى تحول الحكم الشرعي الى الفاظ وحروف وبعيدا عن حكَمه البالغة.. وأدت هذه الممارسة الحرفية للحكم الشرعي إلى حذف دور العقل كليا عن مجال الشرع، بالرغم من انه

---

١. خالف بعض هؤلاء مبدأ (المهم والاهم) وزعم: إن معرفة هذه القاعدة لن تكون إلا بنص خاص، ومن دونه فليس للفقيه أن يحكم باهمية حكم على حكم إلا نادراً..

لم يزل احد المصادر الاربعة للاحكام.

والرجل التقي هو الذي يمارس الشرع على أنه بلا (حكمة) وأنه كالرياضة، حركات تعبدية لا شأن له بفهمها، وقد تؤدي به هذه الممارسة إلى ما يخالف حكمة الله في تشريع الحكم.

فمثلا.. فلسفة النكاح، وهي إيجاد رابطة متينة بين الذكر والانثى تحافظ على حقوق الجانبين وتبني اسرة صالحة، وهذه الحكمة مفقودة في الزنا، وهي العملية الجنسية التي لا توصل الجنسين بعلاقة متينة بل تركز الانتباه الى لحظة الاتصال والارتواء الشهوي..

وقد شرع إلى جانب عقد الزواج الدائم، عقد الزواج المؤقت الذي ينتهي بانقضاء المدة او الموت دون طلاق، والذي يجب أن تتوفر فيه كافة عناصر الزواج الدائم، فيما بينها الكلام الذي يعبر عنه والذي يُدعى بـ (صيغة العقد)، ومنها بالطبع إلتزام الطرفين بواجب القيام بمهام شؤون الزواج من احترام الفراش، إلى تبادل الحقوق والواجبات، وإلى بناء الاسرة الطاهرة (باعتبار ان هذا الالتزام هو مفهوم العقد.)

ولكن جيل القشريين، يزعمون أن (المتعة) هي (زنا) يتحول عن طريق تركيب (صيغة العقد) عليه إلى عمل مشروع، بل مستحب فتراهم يسوغون لانفسهم الممارسة الجنسية مع زانية، لقاء مال متفق عليه وهم يعرفون - كما تعرف هي - أن ليست هناك أية إلتزامات يرتبطان بها فيما وراء الفراش، منتهى الامر إنهم يتفضلون باجراء (صيغة العقد) زاعمين بان وجود كلمات (متعتك نفسي+قبلت) سوف تبدل واقع الزنا الى واقع النكاح، ويقولون (انما يحلل الكلام ويحرم الكلام)[1].

---

١. هذا نص حديث موثق، وهو يعني ان الارادة التي تعبر عنها الكلمة هي التي تغير الاشياء، كما يدل عليه سياق الحديث، مما يدل على أنه تعبير آخر عن القاعدة الفقهية الشهيرة (العقود تتبع القصود) راجع كتاب البيع، للعلامة الانصاري.

بلى، ولكن ليس الكذب كلاما، وليست حروف (متعتك نفسي+قبلت) التي لا تعبر عن القصد من الطرفين، ليست هذه الحروف كلاما.. ولكن القشريين يزعمون ان كل صيد الرسالة في جلد الحروف..

والتعامل بالربا المشروع، هو الآخر اسلوب يثير الضحك، لانه موغل في الفهم السطحي للدين، إذ أنهم يقرضون بالربا، ويتراضون على مقدار (الربا - الفائدة) ومدة القرض وكل شيء، ثم يبدؤون باجراء (صيغة شرعية) (لتدبين عملهم) وهو (بيع علبة دخان) يعطيها المقرِض في مقابل الفائدة التي يأخذها، فترى أن الفائدة قد تكون في صفقة ربوية تعادل أكثر من الف دولار تعوض بعلبة دخان، بالله عليكم هل هذه صفقة معقولة؟ ام هي عملية تحليل الربا، الذي حرمه الله، وأعلن الحرب على من تعاطاه؟.

وكما بيع الفائدة بعلبة دخان أو ما اشبه، كذلك المعاملة التي تُسمى ببيع الشرط، فهي ايضا تثير الضحك، لانها هي الاخرى موغلة في الاحتيال على الدين بممارسة الشكل بعيدا عن اي مضمون.

والواقع ان هذه الشكلية الساذجة في الفقه التي كانت وراء (تدبين) مجموعن من الاعمال غير المشروعة، كما كانت وراء إحداث هوة سحيقة بين الفقة الرسالي وبين الفقه الموجود[1]. ولو جاء فقيه شجاع وعاد الى المصادر الاولية للفقه متجاوزا لركام الالف عام الماضية، لرأينا أي فقه جديد وناصع تمتلكه رسالة الاسلام.

---

١. قالوا: ان العقد هو اللفظ، او بتعبير آخر هو صيغة التعامل، بينما العقد في واقع اللغة، وفي تفسير الشرع، هو التزام الطرفين وتراضيهما بشيء واحد، وقالوا: ان المناط الارادة الظاهرة، بينما الاصح، ان الاهم الارادة الباطنة للمتعاقدين، باعتبارها هي حقيقة العقد، وقالوا: إن المعاطاة باطلة لافتقارها للفظ العقد، بينما هي صحيحة لوجود الالتزام، وهو حقيقة العقد، وهناك اشياء كثيرة قالوا بها وهي باطلة.

٦
الثقافة الرسالية .. معالمها وقيمها

بعد سبات طويل لف الامة الاسلامية طوال ستة قرون، كانت اوربا أثناءها تستعيد أنفاسها لبناء نهضتها المعاصرة..

بعدئذ بات علينا لزاما تجديد حضارتنا على أسس متينة لظروف التحدي التي تخضع لها الامة، في كافة المجالات السياسية منها والاقتصادية..

ولكن، ما هي معالم هذه الحضارة؟

لتحديد معالم العمل الحضاري لابد أن نعود إلى ثقافتنا كما يعود الظمآن الى عين ماء متدفقة.. لماذا؟

لعدة اسباب:

١- لان الثقافة هي مصدر إشعاع روحي ضخم يعطينا الاعتزاز بانفسنا، وميزات شخصيتنا، ويزيدنا إيمانا بقدراتنا الكبيرة.

إن إرتباطنا الروحي بأمجاد الامة، وببطولات عظمائها، وميزات شعوبها، ومساعيها الكبيرة من أجل خير الانسان، إنه يدفعنا الى الاقتداء بهم، والجهاد من اجل المحافظة على تراثهم العظيم.

٢- كما غدير ماء فرات تتجمع فيه روافد الانهار، كذلك تختزن الثقافة خلاصة تجارب الامة في الحياة، تجاربها في البناء، تجاربها في النهضة، في محاربة الاغلال الاجتماعية، في تطوير الوسائل وفق متغيرات الزمن، في محاربة الاعداء..

إن كل جيل يقوم بجهود جبارة من أجل حضارة الانسان، ثم يذهب الجيل، وتختفي جهوده، ويبقى كتاب الثقافة يختزن تلك الجهود.. لتقوم الاجيال الآتية بالتزود منها متى ما شاؤوا..

ولان كل امة لها ظروفها الخاصة، فلكل امة ثقافتها الخاصة وكما لا يستطيع الانسان أن ينفصل من تأثير ظروفه عليه من بيئته أو مناخه، كذلك لا يمكن أن يهجر الانسان ثقافته الخاطئة، لانها تعكس ميزاته، وميزات ظروفه..

٣- وتزيد الثقافة الاسلامية التي تنتمي اليها الامة، على بقية الثقافات، بانها تملك رؤى واضحة الى الحياة، لانها ثقافة الوحي التي جاءت بصائر للناس وهدى.

وحاجتنا الى رؤى واضحة الى الحياة حاجة ماسة، لاننا أمام خيارات صعبة نتيجة احتكاكنا بالحضارات المادية.

لهذه الاسباب الثلاثة، ستحتوي بحوثنا القادمة عن الثقافة الرسالية على:

اولا - بحث حول معالم الثقافة الرسالية وقيمها.. ثانيا - بحث عن الثقافة الرسالية والفكرة المسئولة.. وثالثا - بحث عن الثقافة الرسالية والافكار اللامسئولة..

ندعو الله ان يوفقنا ويسدد على درب الحق خطانا..

ما هي الثقافة الرسالية؟

قبل أن نجيب على سؤال: ما هي الثقافة الرسالية؟ يجب أن نتساءل: ما هي الثقافة؟

- : الثقافة، في المصطلح الحديث، لا تشمل كل العلوم، إنها تلك التي تتصل مباشرة بسلوك الانسان، فليست الجغرافيا أو الرياضيات،

او علوم الفلك والنجوم، ثقافة، لانها لا تهدف تغيير سلوك الانسان.

ونستطيع تعريف (الثقافة) بانها المعارف التي تعطي الانسان بصيرة في الحياة، ونوراً يمشي به في الناس، ولذلك تعتبر فلسفة الحياة، وفلسفة التاريخ، وفلسفة الاجتماع كلها ثقافات.

لماذا؟

-: لانها تعطي صاحبها رؤى ينظر من خلالها إلى الحياة.

والكلمة التي أطلقها القرآن بديلة عن الثقافة هي (البصيرة) كما أطلق كلمة (الهدى) و(الحكمة) بديلة عن (الفلسفة).

فالبصيرة، هي الثقافة المفضلة التي تهدف إصلاح الانسان وإصلاح سلوكه، بينما (الهدى) هي المبادىء العامة لهذه الثقافة.

والآن.. ما هي الثقافة الرسالية؟

-: هي (الثقافة السليمة والانسانية والشجاعة التي تنتج الاصلاح الجذري لمشاكل الامة اليوم).

من هنا نعرف الخصائص العامة التي تتميز بها الثقافة الرسالية وهي:

١ - ثقافة، لانها بصائر ورؤى تمكن الانسان من تفسير الحياة من حوله، تفسيرا متصلا بسلوكه، وبقيمه فيها.

ولولا أنها ثقافة لما استطاعت أن تعطينا فكرة عن الحياة ونوعاً محدداً من السلوك فيها، وهذا هو الذي يميز الثقافة اساسا عن سائر العلوم حيث أن العلوم الأخرى لا تتصل بالسلوك مباشرة.

٢ - وهي ثقافة سليمة، تعتمد الحق وسيلة وهدفا، فمن أجل الحق، وبأسلوب حق، تضمن الثقافة الرسالية للانسان التغيير والاصلاح.

الحق - لا الواقع - سمة الثقافة الرسالية، وجزء من الحق متصل

بالواقع، على انه حدود تطبيقه، لا على أنه ملهم تشريعه. إن الثقافة الرسالية - كأية ثقافة نهضوية تغييرية في العالم - لا تؤمن بالواقع إلا مؤقتا، وفيما يتم اصلاحه وتطويره وفق مقتضيات الحق.

والحق، هو الذي يهدي اليه العقل السليم، البعيد عن شهوات الواقع المادي، والبعيد عن سيئات المجتمع المادي، والبعيد عن تراث التخلف.

الحق، هو الذي تهدي إليه سفن الحياة العامة، وتهدي إليه النظرة الموضوعية الشاملة لاحداث الحياة اليومية ولمسيرة التاريخ المديد.

٣ - والثقافة الرسالية هي ثقافة حق - انساني، تهدف إصلاح الانسان، وسيلة وهدفا..

إذ ليست القيمة النهائية للحياة سوى تدريب البشر لحياة اخرى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا؟ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ الإنسان، ١-٢

﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت، ١-٢

﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال، ٢٨

﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد، ٣١

وإذا كانت المهمة الاولى والكبرى التي لابد أن يحققها البشر في الدنيا هي تهيئة الذات البشرية للحياة الاخرى، فإن كل شيء في الدنيا لابد أن يوضع لتحقيق هذه المهمة.. مهمة تزكية الانسان وتربيته.

من هنا فليست الحياة تهدف عمارة الارض، بالرغم من أن عمارة الارض، ضرورة لاستمرار حياة الانسان عليها، إلا أنها ليست غاية نهائية للحياة، وهذا هو الفرق بين حضارة السماء، وحضارات الارض كلها..

إن الغاية النهائية لحضارة السماء، هي تزكية البشر لتهيئة نفوسهم لدخول جنة عرضها السماوات والارض أُعدت للمتقين، بينما الغاية النهائية لحضارة الارض هي إنتاج أكبر قدر مستطاع من وسائل الانتاج، وتصنيع التراب، وتزيين ما على الارض، ولو كان على حساب تهذيب الانسان، وإعداده للحياة الاخرى.

يقول القرآن الكريم عن هذه الحقيقة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الكهف،٧

فالزينة في بصيرة القرآن، إنما هي (وسيلة) للتهذيب، بينما حضارة الارض تجعلها (غاية) بذاتها. ومن حقنا أن نتساءل من دعاة الحضارة المادية:

إذا استنزفت عمارة الارض طاقات الانسان، وتحطم الانسان، ثم ارتفعت - على حساب تحطمه - البنايات الضخمة العملاقة وازدهرت المدنية، وازدانت الارض كلها، فلمن تبقى كل هذه الانجازات؟ وماذا تنفع؟.

إذن.. الانسان هو هدف حضارة السماء، وفي نفس الوقت هو وسيلة هذه الحضارة، فعن طريق تغييره وإصلاحه، وتزكيته، وتهذيبه تصلح الدنيا وتتغير ملامحها: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد،١١

في حضارة الارض، تصبح الآلة أداة لتغيير البشر، تصبح النظم الاقتصادية (في رأي ماركس) او النظم الاجتماعية (في رأي دركايم وماكس) والآلة الحربية والاغراء المادي (في رأي غيرهم)، كل ذلك يصبح وسيلة ممتازة لتغيير الانسان، او لعمارة الارض.

ولكن ثقافة الرسالة ترى هذه الوسائل غير ذات اهمية بالنسبة الى تغيير الانسان ذاته بل ولا بالنسبة الى بناء الارض، وتحقيق حضارة

مادية عليها، اذ أن الحضارة المادية - هي الاخرى - رهينة قيم معينة من (النشاط، والتعاون، والايثار، والمثابرة) وهي لا تتوافر من دون فكرة ثقافية، والفكرة تأتي نتيجة تطور الانسان نفسه، فمثلا.. كان الحديد في الارض، ومنذ ملايين السنين، وكانت المعادن الاخرى، وكانت النار واليد العاملة، وكل شيء.. بينما لم تكن الطائرة إلا عندما توفرت عند الانسان فكرة حضارية جعلته يبحث ويعمل، ويثابر، ويتعاون، ويصنع الطائرة.

إن إصلاح الانسان، هي الوسيلة المثلى لبناء الحضارة أكانت حضارة الارض أم حضارة السماء. وحضارة السماء تهدف أيضا تزكية الانسان كهدف بعيد للحضارة.

وهكذا تكون (الثقافة الرسالية) ثقافة إنسانية وسيلة وهدفا.

٤ - والثقافة الرسالية، ثقافة إصلاح جذري، لانها تهدف بناء الانسان، وترى أن هنالك مشاكل جذرية تعاني منها حضارات الانسان المادية، وتسبب الشقاء والحرمان للبشرية، وانه من دون معالجة حاسمة لتلك المشاكل الجذرية، فلن ينفع الانسان شيء من المعالجات الفوقية العاجلة، وبذلك تصارح الثقافة الرسالية العالَم المادي بأن اسس حضارته خاطئة.

ومن هنا نستطيع أن نقول أن الثقافة الرسالية هي ثقافة إصلاح جذري، ولذلك فهي تفضح جذور مشكلة الانسان، فمثلا تقول: إن الحروب هي نتيجة لعبادة المادة على حساب كرامة الانسان، وإن الازمات الاقتصادية الخانقة هي نتيجة تورط الانسان في هذه الحروب التي تبتلع ثلث خيرات الارض، وتحولها الى دخان، وإن الحروب الباردة، والقلاقل المتلاحقة، والازمات السياسية، آتية من الازمات الاقتصادية، وان الانسان يدور في حلقة مفرغة ما دام لم ينتبه للخطأ

الرئيسي الجذري في نفس الوقت، وهو عبادة التراب، وسحق كرامة الانسان من اجل عمارة الارض والتراب وإنتاجه وتكريره.

وهكذا تصبح ثقافة الرسالة هي (الثقافة الشجاعة التي تتخذ الحق، والانسان، وسيلة وهدفا).

ولكن.. أين هذه الثقافة الرسالية؟

اين ينبوعها الثر؟ وعينها الصافية؟

-: إنها متكاملة في القرآن الحكيم، كما نتحدث عنه فيما يأتي:

القرآن.. بصائر وهدى

هل القرآن كتاب سياسي كان يهدف تغيير نظام الحكم في الجزيرة العربية؟ أم هو كتاب أخلاقي يهدف ترويض الناس على مبادىء السلوك الفاضل؟ أم هو كتاب فلسفة وقصص تاريخية وعبر؟

صحيح إن القرآن كل ذلك، ولكن الاصح أن القرآن هو فوق ذلك كله.. فهو ليس بكتاب سياسة أو أخلاق أو ثقافة وعلوم، إنما هو كتاب الإنسان، وإذا تحدث عن السياسة أو الاخلاق أو التاريخ فبقدر ما يمت إلى خلق الانسان بصلة..

حين ننظر الى القرآن من خلال هذا الافق الوسيع نرى كل شيء في القرآن موجوداً، ولكن بقدر إرتباطه بخلق (الانسان - الانسان)..

ونرى أن القرآن حين يصنع (الانسان - الانسان) يضمن السياسة الرشيدة، والاجتماع الفاضل، والرؤية الصحيحة الى التاريخ..

إنما الفرق أن القرآن بهذه البصيرة الشاملة لا يفصل السياسة الرشيدة عن الاجتماع الفاضل، ولا التاريخ الحق عنهما، ولا الدين عن الحياة، ولا الآخرة عن الاولى.. إذ هو يدور حول الانسان ويهدف بالاصل إصلاحه، والانسان يتصل إصلاحه بإصلاح السياسة

والاجتماع والتاريخ و.. و..

والقرآن لا يتوغل في تفاصيل السياسة أو الاجتماع أو التاريخ أو أي شيء يتصل بهدف خلق الانسان، إنما يلقي الضوء عليها بقدر ما يرتبط بالانسان..

ولكن كيف يحقق القرآن الحكيم هذه الغاية الحميدة، أي خلق الانسان - الانسان الذي يمثل صفات الانسان المثلى في سياسته واجتماعه ودينه ودنياه؟.

الجواب:

القرآن يهدف توفير البصائر والهدى للانسان، يهدف تغيير منظار الانسان، ورفع الحجب التي تفصل بينه وبين الرؤية الصحيحة للحياة.. وبالتالي يهدف القرآن ايقاظ العقل البشري من سباته، وتكريس قيمه ومقاييسه في حياة الفرد والمجتمع، وفضح المقاييس الزائفة التي قد تخدع الانسان وتُظهر له الفساد بمظهر الصلاح، وإعطاء الانسان دفعات من الارادة الشجاعة لمحاربة الانحراف..

من هنا كان أبرز صفات القرآن انه كان هدى وبصيرة وتذكرة ونورا وضياءً.. هكذا نعت القرآن نفسه، وبهذه الصفات طرح نفسه طريقا لاصلاح الناس جميعا وقال: (١)

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عمران،١٣٨

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الجاثية،٢٠

﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس،٥٧

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل،٨٩

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر،٩

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ الأنبياء،٥٠

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ يس،٦٩

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر،١٧

﴿وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود،١٢٠

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ. هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ غافر،٥٣-٥٤

﴿طه.مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى.إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ طه،١-٣

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ ق،٨

﴿..فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف،١٥٧

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء،١٧٤

القرآن إذن كتاب نور وهدى وتبصرة وتذكرة، وهذه جميعا وسائل لشفاء ما في الصدور، وخلق الانسان الذي يجتبي ويتقي ويؤمن، وبالتالي خلق الانسان الصالح.

ولا يدع القرآن الصلاح فكرة غامضة تعيش في فراغ، إنما يخط لها صراطا مستقيما، ويضع على جانبيه النور الذي يضيئه، فاذا بالقرآن يشرح الخلق العظيم والعمل الصالح، ويفصل القول في الحياة الاجتماعية إبتداءً من تكوين الاسرة وانتهاءً بتكوين الدولة، ويبين النظام الامثل للاقتصاد.. ابتداءً من فريضة الانفاق والزكاة، وانتهاءً بوظيفة المال، وأنه قوام للناس وعليه أن لا يتعدى وظيفته.

ولكن كل هذه التفاصيل تأتي في القرآن الحكيم بهدف وضع الاطار المناسب لاصلاح الانسان، ولكي لا يكون ذلك فكرة عامضة تعيش في الفراغ، فلا تثمر شيئا، ولذلك تجد القرآن يعود الى إصلاح

الانسان والذي هو (الغاية الاساسية في القرآن) يعود اليه كلما ذكر تفصيلا لحكم إجتماعي أو إقتصادي أو خلقي.

ويبقى سؤال أخير:

لماذا جعل الله القرآن كتاب (الانسان) و لم يجعله كتاب إقتصاد أو إجتماع أو أخلاق أو سياسة أو.. أو..؟

الجواب:

لان كل شيء يصبح صالحا بنسبة صلاح الانسان الذي يرتبط به ويريد أن يطبقه وينفذه. وكنموذج دعنا نتخذ الحياة السياسية مثلا لهذه القاعدة:

النظام الحر الذي يصبو إلى تحقيقه كل إنسان كيف يمكن تحقيقه؟ يمكن تحقيقه ضمن الشروط التالية:

١ - مجتمع واع يفهم مصالحه الحقيقية ويستعد للتصويت لكل من ينادي بها.

٢ - وجود مرشحين صادقين يضحون في سبيل مصالح المجتمع ويستطيعون تحقيقها.

٣ - وجود ثقة متبادلة بين هؤلاء واولئك.

اليست هذه الشروط هي ضرورية لنجاح النظام الحر والتي من دونها يتعرض هذا النظام للفساد والتزييف والخداع الجماهيري والفحشاء والميوعة، وبالتالي يتعرض لكل ما تعرضت له أنظمة العالم الحر، في كل من اوروبا وامريكا وبعض البلدان الاسلامية التي قلدتهما في النظام الحر.

إذن، كيف يمكن توفير هذه الشروط؟ أوليس عن طريق بناء الانسان؟ فالمجتمع الواعي،والمرشح المخلص، والثقة المتبادلة، كلها من سمات الانسان الصالح، ولايمكن توفيرها جميعا من دون بناء هذا

الانسان الصالح.

وكما السياسة، وكذلك الاقتصاد، والاجتماع، والاخلاق و.. و.. لا تغني عن الانسان الصالح شيئا، اذ مهما كانت الانظمة صائبة ومتكاملة، فمن دون الافراد الصالحين القادرين على فهمها، والمستعدين لتنفيذها، لا تعني تلك الانظمة شيئا.

مشكلة الانسان الاساسية إذن، ليست في الانظمة، وأنها صائبة أم فاسدة، بل مشكلته كامنة في ذاته، هل هو مستعد لتطبيق النظام الصالح، أم يحوره ويبدله كيفما يشاء؟ والقرآن جاء لحل هذه المشكلة، وبذلك كان كتاب الانسان.

وحسب تعبير القرآن ذاته أصبح كتاب الناس، قال الله تعالى:

﴿هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ﴾ إبراهيم،٥٢

والفلسفات التي ابتدعها البشر، منذ شريعة حمورابي وجمهورية افلاطون، حتى المدينة الفاضلة للفارابي، والى ماركس ولينين و.. و.. كلها تشترك في انها كانت تعالج مشكلة الانسان، ابتداءً من النظام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، وبذلك تريد تصفية الروافد الجارية عن العين، دون العمل على تصفية العين ذاتها، ولذلك كلما أصلحوا رافداً، وصفت مياهها،جاءتها مياه جديدة تحمل التراب والوسخ.

بينما القرآن أولى إهتمامه بتصفية العين ذاتها، بالرغم من أنه أصلح الروافد أيضاً، وبذلك ضمن تدفق المياه العذبة في كل المجاري، وهذا سر شمول القرآن ونجاحه.

وتصفية القرآن للعين وللروافد، وبالتالي: اصلاحه (الانسان) كان عن طريق إعطائه البصائر والهدى.

ولذلك نستطيع أن نقول: إن توجيه القرآن الرئسي هو توجيه ثقافي.

٧
الفكرة المسؤولة

ما هي المقاييس السليمة التي تفرق بين سلوك حق وسليم، وآخر باطل ومنحرف؟ ما هو الفرق بين التيه والضلال، وبين الدرب المستقيم؟ هذا السؤال هو أكبر سؤال تفرضه حياة الانسان اليومية، وممارسته للأحداث الغامضة فيها..

وتأتي أهمية هذا السؤال من وجود خيارات عديدة أمام الانسان كل يوم لابد أن يختار منها واحدا، ويود الانسان لو يوفق لاختيار سليم، وتجيب الثقافة الرسالية عن هذا السؤال بالتالي:

١ - القرآن فرقان

حين يخلد عقل الإنسان إلى سبات عميق فتتكاثف على قلبه حجب الشهوات، وعقد التخلف، حينئذ تنطفئ فيه شعلة التفكير، ولا تبقى أمامه فرصة التعرف على الحقيقة، إلا بالتوسل بهدى السماء، لان أي شيء ينتجه عقل هكذا بشر لا ينفعه، إذ أنه قد عَطَّل عقله واتبع الشهوات، واعتمد التخلف، وترك التفكير، وتعقد نفسيا نتيجة القيم الزائفة.. نقول بصراحة: أي شيء تنتجه حضارة هذا البشر فسوف لا تكون سليمة من جراثيم المرض، ولا يمكن إصلاح المرض بجراثيم مريضة، ولا إصلاح الفساد بفساد آخر.

والخلاص الوحيد هو الاقلاع كليا عن الارض الى السماء،

بالتماس هدى الله الذي تعالى عما في خلقه من سبات العقل، وعقد التخلف.

وهدى ربنا متوافر في كتابه الذي لا ريب فيه هدى للمتقين والذي ذكرنا الرسول(ص) بضرورة العودة اليه.. اذا التبست علينا الامور، وتكاثفت غيوم الشبهات، وضاعت القيم، وتعددت الخيارات، قال:

(اذا إلتبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع، وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار[1]).

العودة إلى هدى القرآن - إذن - هي الوسيلة الوحيدة للخلاص في وضع بشر يملك ميراثا ضخما من التخلف الحضاري.. يقلع عن الالتحاق بركب التقدم، ويحجب بصيرته عن رؤية واقعه، ويغل عقله بأغلال التعصب والجهل والتردد.

وامتنا اليوم هي ذلك البشر - وريث جبال التخلف - وعليها العودة إلى هدى القرآن، والنظر إليه من خلال أوضاعها، ومشاكلها الراهنة، لا من خلال رواسب الماضي، وأوضاع الماضي، ومشاكل الماضي.

عليها أن تُحَكِّم (القرآن) كمقياس أصيل للتعرف على شخصيتها كاملة، ورسالتها بين الامم الاخرى.

عليها أن تُحَكِّم (القرآن) كمقياس ثابت لمعرفة متغيرات الحياة، وأيها أقرب إلى الرشد، أي أنواع التقنية،وأي انواع الانظمة السياسية، والاقتصادية، وأي أنواع الفنون التشكيلية وغير التشكيلية، وأي أنواع الادب والشعر، وأي أنواع الزي والموضات و.. و..

---

١. بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٧، ح١٦.

نقول: علينا أن نُحكِّم (القرآن) في كل هذه الخيارات اليومية التي تفرض علينا عندما نحتك بالحضارة، لكي لا نرفض او نقبل عبثا ومن دون مقياس ثابت، وقد نرفض شيئا صالحا، ونقبل شيئا ضارا.. وقد نرفض اليوم شيئا نقبله غدا، او نقبل شيئا نرفضه غدا، او يرفض فريق منا ويقبل الآخرون شيئا يزعم كل فريق أن إختياره هو الصحيح.

إن إفتقار الامة الى الرؤية الواضحة الثابتة، جعلها ترتبك وتتردد وتتخلف، وتتخذ كل يوم طريقا، وبالتالي: تضيع عليها فرص النجاح.

وهذه الرؤية متوفرة بالكامل في القرآن الحكيم، وعلينا العودة إليه من أجل إستيضاحها، للحصول على مقياس ثابت في الحياة، او حسب تعبير القرآن ذاته، للحصول على فرقان بين الحق والباطل[1].

٢ - العقل المتحرر فرقان

والعقل المتحرر من قيود الشهوات مقياس ثابت آخر لمعرفة الحق والباطل.

إلا أن مشكلة العقل الاساسية هي في:

ألف - سباته وغفلته.

باء - حجبه بغيوم الشهوات.

في هذه الحالة يحتاج البشر الى هدى السماء، الى رسول يتلو صحفا مطهرة[2] نقية عن رواسب التخلف، عن الغفلات والشهوات.

---

١. كلمة الفرقان تدل على معنى (الميزان) وتعني الشيء الفارق بين شيئين، وجاءت الكلمة في القرآن في قوله تعالى: ﴿بارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذيراً﴾ الفرقان،١ ، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ سورة البقرة،١٨٥، ﴿..وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ. مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ آل عمران،٣-٤

٢. ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ. رَسُولٌ مِّنَ اللّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾البينة،١-٣

وحين يهبط كتاب السماء طهورا على قلب رسول طاهر يقوم - اول ما يقوم - بغسل قلوب البشر، ليذهب عنها رجس الغفلة والشهوات، وكما مصباح يحجبه غبار كثيف، فتنظّفه ليضيء ما حوله، كذلك القرآن و(الثقافة الرسالية) التي فيه، تطهر مصباح العقل من درن السبات والشهوة ليضيء دروبنا في الحياة.

ذلك أن (الثقافة الرسالية) ذاتها سلسلة إجراءات من أجل خلاص العقل من السبات ومن نير الاغلال النفسية والاجتماعية و.. و.. وبالتالي من أجل إثارة فعالة تهدف إخراج العقل من تحت ركام الخرافات.

والعقل حين يتنبه من سباته، ويتخلص من أغلاله، يشع كألف ألف شمس على الحياة، ويضع أمام الانسان خريطة متكاملة لدروبها.

من هنا نعرف أن (الثقافة الرسالية) تؤمن بالعقل المتحرر من الشهوات، بالعقل الواضح الذي تطمئن اليه النفس ويستريح عليه القلب.

فهذا العقل تكرر في القرآن الدعوة إلى تنبيهه مرة بعد مرة، حيث قال الله تعالى:(أفلا تعقلون؟)(لعلكم تعقلون)(ان كنتم تعقلون)(أفلم تكونوا تعقلون)(لقوم يعقلون)(أفلا تتفكرون) و.. و.. و.. كما جاء في السنة الدعوة اليه، وأن العقل رسول باطن والرسول عقل ظاهر، فقد قال الإمام الكاظم عليه السلام: (إن لله على الناس حجتين.. حجة ظاهرة وحجة باطنة، فاما الظاهرة فالرسل والانبياء والائمة، وأما الباطنة فالعقول. (وقد) نُصبَ الخلق لطاعة الله، ولانجاة الا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل يعتقد، ولا علم الا من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل)[1].

---

١. بحارالانوار، ج ٧٥ (كتاب الروضة)، ص٣٠٠و٣٠١.

وقال الامام علي(عليه السلام): (العقل عقلان: عقل الطبع، عقل التجربة، وكلاهما يؤدي الى المنفعة، والموثوق به صاحب العقل والدين، ومن فاته العقل والمروءة فرأسماله المعصية، وصديق كل امرء عقله، وعدوه جهله، وليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل من يعرف خير الشرين..)[1].

٣ - رأي القيادة الرشيدة.. ميزان

إذا عجز البشر عن الاهتداء بنور الوحي، وضياء العقل، فماذا يصنع؟ هل يبقى في حيرة، ورياح الشبهات تعصف به الى اليمين والى الشمال؟ كلا.. إنما تجب العودة إلى (القيادة الرشيدة المستلهمة من القرآن والعقل الحكيم)، فالقيادة الرشيدة، كما النبي وكما أوصياؤه، هي التي تستنبط من القرآن، وتهتدي بضوء العقل، وتختزن تجارب الامة، وهي بالتالي تكون أعرف بمواقع الصحة والفساد، والهدى والضلال، وبذلك تكون العودة الى (القيادة) هي ميزانا لمعرفة الحق والباطل.

يقول القرآن الحكيم: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ النحل٤٣-٤٤

ويقول: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء،٨٣

ويقول الحديث: (واما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا، فانهم حجتي عليكم، وانا حجة الله..[2])

---

١. المصدر، ص٦، ح٥٨.

٢. بحار الأنوار، ج٢، ص٩٠.

والقيادة الرشيدة، هي أفضل قيادة ممكنة في ظروف الامة الراهنة، وليس من الصحيح انتظار القيادة الرشيدة، والتملص خلال فترة الانتظار من مسؤوليات الطاعة، كما تصنعه قطاعات كبيرة من الامة، فاذا بها تتعلل بان الفقهاء العدول غير كفوئين للقيادة، وغيرهم لا يجوز الارتباط بهم، إذن دعنا نرتع كالاغنام السائبة، وعمليا يعيشون الفردية المطلقة، والفوضى الشاملة، وعدم الالتزام أبداً بأي شيء.

كلا.. انما الصحيح في ظروف كهذه أن تقوم الامة بأمرين:

١ - البحث عن أفضل قيادة ممكنة، والالتفاف حولها وطاعتها بالخير والصلاح.

٢ - محاولة إصلاح القيادة، أو صنع قيادة صالحة.

والبقاء بلا قيادة رشيدة، يعني البقاء بلا خطة، بلا استراتيجية، بلا هدى، وبالتالي خسارة الحياة.

وقد تجبر الظروف الاستثنائية الانسان الى العمل مع قيادات باطلة، لانه لم يفتش عن القيادة الصحيحة في الظروف العادية.

الفكرة المسؤولة

إذا أردت أن تكتشف شيئا فان امامك طريقين: إحداهما التعرف على مصدره، والثانية التعرف على آثاره.. فحين ترى عين ماء، تكتشف الماء، كما أنك حين تكتشف الماء.. تعرف وجود العين.. فالعين مصدر، والماء أثر لها، وبكل واحد منهما تستطيع ان تكتشف الآخر.. لا تكتشفه وحده، بل وأيضا تتعرف على سماته وصفاته.

كذلك في الافكار.. إذا اكتشفت مصدرها عرفت طبيعتها، ومصدر الافكار بالطبع هي الدوافع التي وراءها.. فحين تعرف أن

وراء إنتاج فكرة، مصلحة مادية فانك لا تحتاج الى ذكاء لتعرف أن هذه الفكرة إذن هي فكرة باطلة أو على الاقل لا تمثل الحقيقة تماما.

كما أنك لو اكتشفت النتائج الطيبة والخبيثة التي تنتهي اليها الفكرة لابد أنك تعرف طبيعة الفكرة، طيبة أو خبيثة.

أما إذا حاولت أن تستبين طبيعة ثقافة، فان عليك أن تستعير طريقة الكيماويين، وتقوم بتجزئة الثقافة الى أقل وحدة ممكنة ثم تدرس كل وحدة فكرية على ضوء نتائجها المرتقبة، فتطرح السؤال هكذا: إلى أي عمل توحي هذه الفكرة؟

هناك تتميز الفكرة الطيبة عن الخبيثة، فاما الطيبة فهي التي تنتهي بالعمل الصالح، بينما الخبيثة التي تكون عاقبتها التثبيط عن العمل الصالح.

وإذا أحببنا أن ندرج على مصطلح، فلابد أن نسمي الفكرة الطيبة بـ (الفكر المسؤول) ونسمي أختها بـ (الفكر اللامسؤول) باعتبار أن أهم ميزة في الفكرة الطيبة هي (المسؤولية).

ولكن المسؤولية تتصل بالحرية، بل هي البنت المدللة لها، فلولا الحرية لا يتحمل أحد تبعة عمله إن خيراً أو شراً.

أما المُجبر على عمل، فانه يتحلل عن مسؤوليته، وله الحق في ذلك.

حتى الاطفال إذا ارتكبوا جنحة برروها بانهم كانوا مجبرين عليها، إذ يعرفون بفطرتهم أن المسؤولية تأتي بعد الحرية.

إذن.. فاية فكرة توحي بالكسل، أو تنفي المسؤولية، أو تناقض حرية الانسان، وتوحي بان الانسان مجبر على أعماله، فانها فكرة خبيثة لامسؤولة.

وبالرغم من وضوح وبساطة هذه الحقيقة، فانه يكاد لا يهتم بها في حقل التوجيه الثقافي، خصوصا في جماهير امتنا المتخلفة.

فنحن - ومع كل الاسف - نتعرض يوميا لتسليط امواج من الفكر اللامسؤول على أدمغتنا في محاولة لتخديرها وإبعادها عن القيام بدورها في الحياة.

ولان هذه النوعية من الافكار مُدانة من قبل الانسان، لان فطرته تأبى له إلا الحرية التامة، فان الثقافة المتخلفة تقوم بعملية غسل الدماغ عن طريق هذه الامواج الفكرية اللامسؤولة.

والتخلف في الامة سيتجذر بنسبة إستسلامها للجبرية من اي نوع كانت، كما سيكون رفضها للتبرير، ومطالبتها بالحرية بداية نهضتها.

وفي ما يلي من البحوث سوف نستعرض جوانب الفكر المسؤول، ابتداءً من رؤية (الثقافة الرسالية) عن الهدف الرئيسي من خلق الانسان، ومدى أهمية لحظة القرار في تكوين الانسان.. ومرورا بفكرة الامانة، وارتباطها بالمسؤولية، وأيضا فكرة الجزاء والهداية، وفلسفة الاسلام فيهما، وفي تفسير التاريخ.. وانتهاءً بالافكار اللامسؤولة، وسبب نشوئها، وانتشارها، وطبيعتها، وكيفية محاربتها.

المسؤولية هدف الحياة

تؤمن الثقافة الرسالية بالفكر المسؤول، وترفض باصرار الافكار اللامسؤولة، الافكار الغيبية التواكلية التي توحي بتعطيل دور الانسان وفاعليته في الاحداث.

وبالتالي ترفض كل الافكار المتخلفة التي ورثتها الامة من أجيال التخلف، كما ترفض الثقافات الحتمية[1] التي استوردتها الامة من الخارج.

---

١. الحتمية التاريخية، والحتمية الاقتصادية، والاجتماعية او السياسية التي ظهرت في الثقافات الغربية في عهد متأخر من نهضتها نتيجة تشوش الرؤية الحضارية عندهم، وسوف نعالج طائفة من الافكار اللامسؤولة والحتمية في الفصول القادمة إن شاء الله.

وايمان الثقافة الرسالية بالمسؤولية آتية من رؤيتها الواضحة الى الحياة والهدف منها.

تلك الرؤية التي تنسجم مع الحق والفطرة، كما تستلهم من نصوص الرسالة، وهي تتلخص في:

أن الحياة ليست عبثا وإنما تهدف تجربة إرادة الانسان.

والسؤال الاول: ما هو العبث، وهل الحياة عبث؟ أليس كل شيء بلا هدف هو عبث؟ أي بلا بداية وبلا مسير وبلا مصير، أمّا ذاك الشيء الذي يتحرك من نقطة محددة، عبر مسير واضح، الى مصير مرسوم سلفا، هل يمكن أن نزعم أنه عبث؟ كلا..

دعنا الان نلقي نظرة على العالم من حولنا.. هل الشمس خُلقت عبثا؟ إننا لم نكتشف بدايتها، ولم نر نهايتها ولكننا نجدها تتحرك في خط مرسوم لتؤدي أهدافا محددة؟.

وكذلك الانسان لا يمكن أن يشذ في هذا الكون فتكون حياته بلا هدف، هل اليدان واللسان والعينان والاذنان والانف وشعرات الرأس وخلايا المخ و.. و.. اي صغير وكبير في جسد الانسان صُنع عبثا؟ لا يؤدي وظيفة ولا يتحرك في مجرى محدد؟

إذا كان كل شيء في جسم الانسان حتى الشعرة الصغيرة وحتى الخلية الصغيرة وحتى الذرة المتناهية في الصغر، ذات سبل واضحة، وأهداف محددة، فكيف يكون خلق الانسان - ككل - بلا هدف.؟. أرأيت شخصا يصنع مصنعا ضخما،يصنع كل شيء فيه لهدف وضمن خطة مما يدل على مدى حكمته وعلمه، ثم لا يكون له هدف من وراء المصنع - ككل - ؟

سبحان من خلقنا، وتعالى عن العبث علوا كبيرا..

ما هو الهدف إذن؟ إنه كما يقول الله، عبر رسالاته جميعا: إعداد

الانسان لحياة سعيدة خالدة، تجربة ارادته وحريته، وتجربة طاعته ومسؤوليته، وبالتالي تجربة تحمله الامانة المخولة اليه.

هذا هو الهدف الاسمى الذي من دون وضعه والاهتمام به في الحياة، لا يكون للغز الحياة حل معقول.

وهذا الهدف ينعكس أيضا في الممارسات اليومية للحياة، إذ أنها هي الاخرى تجارب متواصلة لارادة البشر، ومدى قدرته على التحدي والصمود.

ويتفاضل الناس بينهم بمقياس إرادتهم في مواجهة ضغوط الحياة.

وفطرة الانسان تستجيب هي الاخرى لهذا الهدف، فاذا به يود أن يتحرر من التقليد والشهوات، يود أن يفتدي حريته بكل ثمن، ليجسد أمنيته في إستقلال الارادة والاختيار.

بل إن فطرة الانسان، ووجدانه المتحرر يهمه الاختيار أكثر من أي شيء، إذا أنه يرى أن (لحظة الاختيار) هي (لحظة الانسانية) ومن هذه اللحظة تفيض القدرة والروعة والتحدي والتكامل للانسان، ومن هذه اللحظة تنشأ بالتالي حضارة البشر فوق الارض.

ذلك.. حين لحظة الاختيار يجد الانسان ذاته، وانه شيء في مواجهة الاشياء، لا في عداد سائر الاشياء، وانه قادر على مقاومة الاشياء، تحديها، رفضها، قبولها، وتطويرها و.. و.. اذن فهو شيء، ومن دون هذه اللحظة، يتحول الانسان إلى أداة في يد الطبيعة، إلى جهاز في مصنع الفطرة، إلى ورقة في شجرة الحياة بغير إستقلال ولا ذاتية مميزة.

وحين لحظة الاختيار، يجد الانسان طعم حريته، تلك النعمة التي تسوى - عند من تذوقها وأحس بها - كل شيء.

وحين لحظة الاختيار، يجد الناس الروعة، لان الحرية تمنحهم

التنوع، فاذا بكل فرد يختار دربا ومهنة، ولونا وفنا ومذاقا.

وحين لحظة الاختيار يتحدى الانسان الطبيعة، فلا يخضع لبرد أو حر، أو عري أوجوع، ويتحدى البيئة والاقليم، فاذا به يسيح في الارض، ويلتهم المسافات الشاسعة بالوسائل التي قد تتطور الى الصواريخ العابرة للقارات.

ويتحدى الانسان الانسان، فلا يستقر نظام واحد، ولا يستمر أشخاص معينون، ولا تبقى قيم جامدة، بل يغيرها ويطورها الانسان وفق اختياراته، ويقدم في سبيل ذلك التضحيات، وكل صراعات التاريخ دليل على ذلك، إنها لحظة الاختيار، حين يجد الانسان إنسانيته، وأنها هي مسؤوليته في الحياة.

ولان المسؤولية هي أهم هدف حياة البشر، فان الله يسمي الدنيا (دار بلاء) ويسمي أحداث الدنيا بانها (فتنة) ويقول:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا* إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ الإنسان، ١-٢

﴿أَلم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت، ١-٣

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال، ٢٨

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء، ٣٥

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً، أَتَصْبِرُونَ﴾ الفرقان، ٢٠

والثقافة الرسالية، ثقافة مسؤولة، وبالرغم من عدم إمكانية فصل فكرة المسؤولية عن الثقافة الرسالية، لانها صبغتها الاساسية التي إمتزجت بكامل جوانبها، إلا أننا سنشير إلى بعض تلك الجوانب من أجل إستجلاء رؤى الرسالة في الثقافة، وأبرز تلك الجوانب فكرة (الامانة).

فما هي الامانة؟ ومن ذا الذي يتحملها؟

-: بالطبع ليست الحبوب في المخازن أمانة، إذ أن المخازن لا تستطيع أن تخون وتبتلع الحبوب، وكذلك الثلاجة ليست مستأمنة على الفواكه، ولا الفواكه أمانة فيها، إذ لا تستطيع الثلاجة أن تخون وتأكل الفواكه.

والامر يختلف في الانسان لانه يقدر على الخيانة، فهو قادر - إذن - على الامانة، وبالتالي يتحمل المسؤولية.

من هنا حينما أراد القرآن الحكيم أن يعطي ميزة أساسية للانسان عن غيره لم يقل أنه (حيوان ناطق) كما فعل (المناطقة) منذ ستة آلاف سنة، ولم يقل أنه (قرد متحضر) كما فعلت الحضارة الحديثة، إنما ميّزه عن كل شيء بأنه (أمين) وبهذه الكلمة بَيَّنَ ثلاثة نقاط هامة في الانسان:

١ - القدرة.

٢ - الحرية.

٣ - الشرف.

بالقدرة يستوعب الانسان الامانة، وبالحرية يختار إما ردها أو خيانتها، وبالشرف يرتبط بردها، فالشرف ذلك الاحساس العظيم الذي يربط الفرد بكلمته، ويدعو الآخرين الى الثقة به، والتعامل معه.

هذه الحقيقة نجدها نصا في الآية الكريمة:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ الأحزاب،٧٢-٧٣

هنا بيّن الكتاب الحكيم:

أولا - إن الامانة كبيرة وعظيمة إلى درجة أشفقت السماوات والارض والجبال من حملها[1].

ثانيا - إن الامانة التي حملها الانسان بحاجة إلى صفتين هما: العدالة والعلم، أما الظلم والجهل فانهما يدعوان البشر إلى الخيانة.

ثالثا - إن الظلم والجهل مرتبطان بذات البشر، وعلى الانسان أن يتحدى هذا الضعف، بالتحرر من الظلم والجهل.

رابعا - إن عاقبة خيانة الامانة هي العذاب، بينما التوبة والمغفرة هي جزاء المؤدين لها.

وبهذه النقطة يربط القرآن بين الامانة وبين الجزاء.

المسؤولية وفكرة الانذار

إطار السيارة التي تتحرك بدفع الوقود، وتتوقف بضغط جهاز الفرامل، الوقود الذي يشتعل حينما تمسه النار، والفرامل التي تهتز حين تحركها قدم السائق، ليست هذه جميعا قابلة للانذار أو البشارة، ولا أية أداة جامدة اخرى، لانها مجبرة في حركتها باتجاه محدد.

---

١. ليس من المهم أن نسأل متى وكيف تم عرض الله الامانة على السماوات والارض والجبال، إنما المهم أن نعرف رموز هذه الكلمة ودلالاتها والتي منها بالطبع عظمة الانسان بالنسبة الى اشياء الحياة وذلك بفضل عقله وحريته وشرفه.

أما الانسان فانه يُنذَر ويُبشّر لانه يستطيع أن يختار طريقه، ومن هنا أوضح القرآن في آيات عديدة فكرة الانذار وقال:

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ الكهف،٢-٣

فالجزاء حقيقة إنما يأتي الذكر لينذر منه أو يبشّر به.

﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة،١٩

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر،٢٤

﴿فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ البقرة،٢٣١

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الكهف،٥٦

٨
المسؤولية بين الحرية والجزاء

وفي طليعة الحقائق التي يُذكِّر بها القرآن الحكيم هي حرية المشيئة البشرية، تلك النعمة التي انعمها الله علينا، ومن يكفر بنعم الله فسوف يلقى جزاءً موفورا. ولم يكتف ربنا باعطاء الانسان نعمة الحرية بل منحه كافة الوسائل الكفيلة بالدفاع عنها.

وفي طليعة هذه الوسائل رسالات السماء التي أنزلها الله على البشر، لكي توفر له أفضل الفرص للتحرر من الاغلال الذاتية ومن القيود الاجتماعية.

وبَشَّر الله في الكتاب برسوله محمد صلى الله عليه وآله باعتباره منقذ الانسان من كل أنواع العبودية وقال:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..﴾ الاعراف،١٥٧

إن الإصر والاغلال هما الجانب النفسي للجبت والطاغوت، الجبت بما فيه من قيود الشهوات والخرافات والاوهام الباطلة، والطاغوت بما فيه من ضغوط الحكام والتجار ومحترفي الديانات و..

والإصر والاغلال هما أفضل تعبير عن العبودية التي حاربتها رسالات السماء عامة، والاسلام بصورة خاصة.

حيث إن أهم بنود رسالة الاسلام كانت محاربة العبودية لاي شيء او شخص سوى الله، وإن شعار الرسالة (لا إله إلاّ الله) هو شعار رافضي بالدرجة الاولى، إذ أنه يشدد على (رفض) كل أنواع العبودية لغير الله.

ومن هنا أمر الاسلام أمراً صريحا ومؤكدا بواجب الكفر بالجبت والطاغوت، باعتبارهما سارقا حرية البشر، فقال الله عنهما:

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى..﴾ البقرة،٢٥٦

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ النساء،٥١

ولكي يحافظ الانسان على حريته، زوّده الله بفطرة خالصة يتمكن أن يكتشف بها الصراط المستقيم من بين السبل المتفرقة، فقال ربنا عنها:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان،٢-٣

الفطرة رأسمال الانسان

إن فطرة الانسان الخالصة، هي تلك الثروة العظيمة التي تبقى مع الانسان في كل ظروف الفقر والمسكنة، حيث يسرق الطغاة والمجرمون ثراوته الفكرية والمادية الأخرى ليستعبدوه لقاء ماء وخبز يجودون بهما عليه، ولقاء أسمال فكر بالية يغطون بها جرائمهم، ولكن هيهات أن يبقى الواقع كذلك، إذ أن الطغاة يقدرون على سلب البشر رزقه، وتغذيته بافكار باطلة تدعم سلطانهم عليه، ولكنهم لا يقدرون على سلب الانسان فطرته الخالصة.

تلك الفطرة، هذه الروح العظيمة، هذه الثروة الهائلة هي التي مكّنت البشر من تحدي سلطان الطغاة ومحاربتهم ودحرهم والتقدم بالحياة في كافة الحقول.

إن الطغاة من حكام الجور، وتجار الظلم، ومحترفي الدين أرادوا للانسان البقاء حيث هو، ليستعبدوه، ويبددوا طاقاته في سبيل شهواتهم، وكادت الانسانية تخضع لهم، ولأساليبهم الماكرة الملتوية لولا الفطرة التي زود الله بها الانسان ليحافظ على حريته.

وكانت الفطرة أفضل سند للرسل والمصلحين في مواجهة الطغاة المجرمين.

وبعد ان منح الله الانسان نعمة الفطرة ونعمة الرسالات التي تستجلي الفطرة، بعدئذ دعاه للمحافظة على حريته، ومقاومة الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والوراثية التي تعارض تلك الحرية.

وأمر الله البشر بالهجرة بحريته في أرض الله حتى يستطيع تحدي الطغاة، وتحرير الارض منهم.. فيأمر بالهجرة ويقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ النساء،٩٧

ثم يُرغِّب في الهجرة، ويقول:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ النساء،١٠٠

إن الهجرة ليست فراراً من الطغاة، إنما هي إستعداد من أجل محاربتهم، والعودة الى الارض بعد تحريرها من نيرهم.

وإذا كان الانسان يقدر على التحدي والصبر على الاذى حتى

يتمكن من إستعادة حريته فعليه أن يفعل ذلك، حتى ولو تحمل أذى كثيراً مثلما فعل المؤمنون في عهد فرعون حيث يتلو علينا القرآن نبأهم ويقول:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الأعراف،١٢٧

هذا كان منطق فرعون صاحب المال والسلطان، ومهندس التعذيب الوحشي، ولكن ما هو منطق الرسالة؟ هل هو الاستسلام لضغوط فرعون؟ أم التصدي له؟ لنستمع القرآن يقول:

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ،قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف،١٢٨-١٢٩

لا.. للطغاة

والتصدي للطغاة قد ينتهي بالموت إلاّ ان القرآن يستهين بالموت في سبيل الحرية، ويدعو الانسان الى نبذ الخوف إلاّ من الله ويقول:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً..﴾ آل عمران،١٧٣

ولكي لا يتهيب البشر قدرات الطغاة، فيتكاسل عن مقاومتهم واستعادة حريته منهم، يستهين القرآن ويهزأ بهم ويضرب عنهم مثلا حين يقول:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِ اللّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت،٤١

ارأيت كيف ينهار بيت نسجته العنكبوت؟ كذلك ينهار كيان الطغاة، إن كيد الطغاة ضعيف، وإن الانسان الذي يدافع عن حقه في الحرية أقوى منهم وأمتن كيداً.

هكذا يهيء الله الانسان للقيام بواجب المحافظة على حريته، وهكذا يجعل الحرية ميزة الانسان، وهكذا بالتالي تتوفر للانسان فرصة القيام بمسئوليته إعتمادا على نعمة الحرية.

إن الله منح الانسان الحرية، و لم يستعبد الإنسان جبرا عليه بالرغم من أنه هو الذي خلقه، ورزقه، واليه المصير، فكيف يرضى بأن يستعبد الناس حرية بعضهم؟

وأكثر من هذا إن الله لم يجبر الناس على الهداية، لانه لم يشأ أن يسلب منهم حرية القرار، حيث أن الحرية هي أهم نعمة وهبها الله للانسان. من هنا قال الله:

﴿..أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا..﴾الرعد،٣١

﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا..﴾ السجدة،١٣

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ..﴾ النحل،٣٧

ولولا أن الله جعل الدنيا دار بلاء وفتنة، ولولا أنه جعل الحرية البشرية، قيمة أساسية فيها، ولولا أنه وَفّر على الانسان كل ما يمكنه من ممارسته حريته، إذن لهداه بطريقة جبرية، ولأنزل مثلا ملائكة من السماء، أو فَجّر الارض للانبياء ينابيع، وأعطاهم مفاتيح الحياة جميعا، ولكن لماذا لم يفعل؟

لأنه أراد أن يختبر الانسان، أن يفتنه فيما آتاه، فوهب له العقل والشهوات، وقال سبحانه وهو يستعرض إقتراحات الكفار للانبياء:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخيلٍ وَعنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خلالَهَا تَفْجيرًا، أَوْ تُسْقطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كسفًا أَوْ تَأْتيَ بِاللّه وَالْمَلآئكَة قَبيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُف أَوْ تَرْقَى في السَّمَاء وَلَن نُّؤْمنَ لرُقيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ الإسراء،٩٠-٩٣

المسؤولية وفكرة الجزاء

إن الجزاء مرتبط إرتباطا وثيقا بالمسؤولية، بينما هو نتيجة مباشرة للعمل، وقد أوضح القرآن ذلك في آيات عديدة (كرر القرآن كلمة الجزاء ١٣٠مرة) حيث قال الله تعالى:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتيَةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا لتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى..﴾طه،١٥

﴿..ولتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾الجاثية،٢٢

﴿.. كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾الجاثية،٢٨

﴿..مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصيرًا﴾ النساء،١٢٣

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالدًا فيهَا..﴾ النساء،٩٣

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسنينَ﴾يوسف،٢٢

﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ في الْعَالَمينَ، إِنَّا كَذَلكَ نَجْزِي الْمُحْسنينَ﴾الصافات،٧٩-٨٠

﴿..فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكنُهُمْ كَذَلكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمينَ﴾ الأحقاف،٢٥

فالساعة موقع الجزاء في الآخرة، والجزاء مرتبط بما كسبه الفرد، وهو عادل لا ظلم فيه، لانه ينبعث من مقياس هو كتاب كل امة، وليس هنالك ما يحول بين المرء وبين جزاء عمله من ولي أو نصير، وليس الجزاء في الآخرة فحسب، وإنما يلقى المرء جزاءه في الدنيا أيضا، حيث يجزي الله المحسنين بالحسنى، ويجزي المجرمين بالتدمير الكامل، حتى لا يُرى الا مساكنهم[1]، أما هم فقد ذهبوا وأصبحوا أحاديث تُروى.

هكذا يوضح القرآن الحكيم فكرة الجزاء التي هي نتيجة المسؤولية.

الجزاء والعمل

وتأكيد الثقافة الرسالية على ربط الجزاء بالعمل يجعل كثيراً من أحداث الحياة مرتبطة بعمل الانسان ربطا طبيعيا أو غيبيا.

وتماما، بعكس الفكرة المنتشرة في الشعوب المتخلفة - ونحن منهم - والتي تسحب الغيب الى منطقة الشهود، وتجعل (الميتافيزيق) فوق الطبيعة محل (الفيزيق) الطبيعة، وبذلك يتحلل الانسان من كامل مسؤوليته اتجاه الاحداث، تماما بعكس هذه الفكرة توصي الثقافة القرآنية الرسالية، اذ تجعل الغيب والشهود (الطبيعة وما وراء الطبيعة) متصلين بعمل الانسان، وبهذه الطريقة يتحمل كل انسان مسؤوليته كاملة.

فبينما يستمر في العقلية العربية، ذلك التوجّه الغيبي الذي يحمل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيق) في نواحٍ عديدة مكان الطبيعة (الفيزيق) ولا تؤخذ وتنشر باسم الدين الا القيم الاستسلامية وشعارات الطاعة والقناعة والفناء، فالقرآن في الطرف الآخر يقول:

---

١. هذه المعاني مستوحاة من الآيات السابقة الذكر آية آية.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ..﴾ الشورى،٣٠

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر،٣٨

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى* وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى﴾ النجم،٣٦-٤١

وتكريسا لهذه الحقيقة الكبيرة التي يتهرب منها فكر الانسان المتخلف بأية وسيلة ممكنة يقص علينا كتاب ربنا الكثير من أحداث الماضي من خلال بصيرة الجزاء ومنظار المسؤولية، ليربط بين عاقبة الامور وبين طبيعة أعمال الناس، دعنا نتدبر في بعض هذه القصص، يقول الله:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ* وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ* فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ العنكبوت،٣٨-٤٠

ان الجزاء جاء نتيجة عملهم وكان جزاء عادلا، وبالرغم من ان طريقة الجزاء كانت غيبية (ما وراء الطبيعة) فان الجزاء كان متصلا في كميته ونوعيته بعمل أصحابه، فخسفت بيوت (عاد) القوم الذين ركنوا إلى الجبال واستكبروا إعتمادا عليها، وزلزلت بيوت القوم الذي بنوا من الصخور بيوتا في الوادي (ثمود) وخسفت ثروة ذلك الرجل الذي استكبر على الناس بماله (قارون) اما اولئك الذين عشقوا النيل واستكبروا في الارض بانهاره الجارية (فرعون وهامان وجنودهما) فقد أغرقوا.

بهذا المنظار المسؤول يقص علينا القرآن قصصه الحق على الامم الخالية، ليكرس في ذهن المؤمن تلك الصلة الابدية بين العمل والجزاء..

الهداية..مسؤولية

ما اهتديت الى الحق.. ولذلك ما عملت به، وما عرفت الواجب واذن لم أقم به، والمناهج الفكرية التي اتبعتها كانت خاطئة فقادتني الى طريق باطل.

هذه الحجج سخيفة في مقياس (الثقافة الرسالية) وفي منطق الرسالة الاسلامية، ولن يرضى بها الله أبداً، وسيلقى المبررون بها جزاءهم العادل في الدنيا والآخرة.

إذ الهداية هي مسؤولية الانسان نفسه، ولقد زُوِّدَ البشر بنور العقل الذي يكفيه هاديا الى الحق لو اتبعه بصدق وأمان.

وإذا أصبح الانسان مسؤولا عن هدايته، تحرر فكره عن أغلال التقليد والتبعية، وكان يقظا لمواجهة كل إحتمالات الوقوع في الخطأ وعليه أن يتحرى الرشد في تفكيره، عليه أن يفكر بعقله لا بهواه وان يبحث عن الحقيقة بحثا مستميتا، وأن يدور العالم تفتيشا عن الصراط المستقيم.

ومادام الإنسان قادرا على معرفة الحق، فان أي تبرير آخر يصبح سخيفا ومرفوضا.

وفي طليعة هذه التبريرات هو إنتظار الهداة الداعين إلى الحقيقة، أو إنتظار ما يسمى عندنا بـ (التوفيق). إن أبلغ الهداة إلى الحق هو عقل الانسان الموجود عند كل فرد.

فالعقل رسول باطن، كما أن الرسول عقل ظاهر.

جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق عليه السلام:

(لما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له ادبر فادبر، ثم قال له: عزّتي وجلالي ما خلقت خلقا هو احب الي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وعليك اثيب.)[1]

ونور العقل مقسوم سواسية بين الناس، ولا يختلفون الا في مدى الانتفاع به، والانتفاع عمل، والانسان مسؤول عن عمله شاء أم أبى.

والقرآن، تكريسا لفكرة المسؤولية عن الهداية، لا يربط بين الهداية وبين العقل كنور يوجد عند الناس جميعا، إنما يربط بين الهداية وبين العمل بالعقل، والصيغة المعبّرة عن هذه الحقيقة في القرآن هي: (يعقلون) و(يشعرون) و(يتفكرون) و(يتدبرون).

ومعروف إن هذه الصيغ أفعال في تعبير أهل العربية وليست جوامد، والفعل لا يدل فقط على الحركة، بل وايضا على المسؤولية يقول ربنا سبحانه:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاّ الْعَالِمُونَ﴾العنكبوت،٤٣

﴿..كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾البقرة،٧٣

﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الأعراف،١٦٩

﴿..وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ يونس،١٠٠

﴿..كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم،٢٨

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ الشعراء،١١٣

﴿..وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الأنعام،١٢٣

---

١. بحار الأنوار، ج١، ص٩٧.

٩

الأفكار اللامسؤولة .. كيف ولماذا؟

لماذا وكيف انتشرت الافكار اللامسؤولة في الامة؟ وكيف يمكن فضحها وتعرية زيفها من أجل إنقاذ الجماهير منها؟[١]

فى ضمير (الانسان - الفرد) تتصارع قوتا العقل والشهوات، يدعوه العقل الى الله والخير والجمال والحق والتحرر، بينما تدعوه الشهوات إلى اللذة العاجلة والتسرع والافراط.

وفوق العقل والشهوات تعلو إرادة الانسان التي تعتبر بمثابة حاكم قوي يحسم الموقف لصالح إحدى القوتين.

وحين يختار الانسان جانب العقل، فاين تذهب الشهوات؟ هل تندحر كما يندحر ظلام الليل حين تشرق شمس النهار؟ كلا.. إن الشهوات تبقى توسوس في قلب الانسان، ويحتاج الانسان إلى سلاح يحارب هذه الوسوسة، ذلك السلاح هو (التسلية).

ماذا تعني (التسلية)؟ وكيف تتم عند الانسان؟ دعنا نجسدها في حوار يجري عادة داخل الضمير.

العقل: هذا وقت الصلاة، إذهب الى المسجد.

الشهوات: ولكنك جائع، إذهب الى البيت للغداء.

الارادة: كلا سأذهب الى المسجد.

---

١. فى بحوث اخرى عالجنا جوانب من هذه الاسئلة، وهنا نعالج جانبا آخر منها، وهي طريقة كشف الفكرة، عن طريق كشف دوافعها، بالتطبيق على واقع أمتنا المتخلف.

هنا تعود الشهوات توسوس، وتقوم الارادة بالتسلية.

الشهوات: كلا، إنك جائع، كيف تصلي وانت جائع.

الارادة: بلى، ولكن سوف أتغذى بعد الصلاة، ثم إن الله أعد جنة عدن فيها ما تشتهيه النفس من الاكلات الطيبة وغيرها وجعلها للمطيعين من عباده، ثم ماذا تنفع أكلة عاجلة تعقبها ندامة ونار في جهنم.

هذه هي التسلية، تأتي حين يختار الانسان جانب العقل، ولكن كيف إذا اختار جانب الشهوات؟ هنالك يبقى العقل يوخز الضمير، فماذا تصنع الارادة؟ إنها تقوم بعملية (التبرير) والتي تشبه عملية (التسلية) ولكن بشكل معكوس.

فالتبرير يحدث لاسكات دعوة إلى الحق ونبذ الباطل.. دعنا نعيد الحوار المتقدم بطريقة ثانية:

العقل: هذا وقت الصلاة.

الشهوات: بل هذا وقت الغداء.

الاراده: نعم أذهب إلى الغداء.

العقل: ولكن كيف تجيب ربك؟

الارادة: أولا: بمكن تأخير الصلاة. وثانيا: قبل أن نموت سوف نتقرب الى الله. وثالثا: من يقول ان الصلاة واجبة على الجائعين؟

وفي الواقع الاجتماعي، كما في الواقع الفردي، حين يتوانى المجتمع عن واجباته يقوم بتبرير هذا التقاعس، والافكار التي ينتجها هذا المجتمع تكون - عادة - تبريرية.

وكل فكرة تبريرية هي فكرة باطلة، وذات أثر سيء في تقدم الانسان، لان الدوافع التي تكون وراءها هي دوافع ذاتية خبيثة.

والافكار التبريرية لا تستطيع أن تكون خلاقة، لانها جاءت وليدة

إختيار الانسان، فهي أضعف من أن تكون قادرة على صنع واقع جديد.

أممية الافكار التبريرية

والافكار التبريرية ذات صبغة أممية، إذ تمر كل أمة بحين من الدهر تنتشر فيها روح اللامسؤولية والكسل، وتتشبث لتبرير هذه الحالة بأفكار معينة.

هذه الافكار نستطيع أن نسميها بالافكار الصوفية، والتصوف في التاريخ هو الاسم الذي كان يُطلق على السلبية الكاملة في الحياة تماما مثل (الهيبز) في العالم الغربي اليوم.

والافكار الصوفية نجدها في كل أمم الارض، لان كل أمة لا بد أن تكون قد مرت بفترة جمود وتقاعس فتشبثت بأفكار تصوفية لتبرير جمودها وتقاعسها.

وحين تكاسلت الامة الاسلامية إستوحت من ثقافة التبرير الصوفية التي كانت منتشرة في الامم الأخرى، إستوحت الكثير من الخرافات التي سميت خطأً بـ (التصوف الاسلامي) تماما كما إنتشرت في العالم الغربي اليوم أفكار التصوف الهندي في هذه المرحلة التي تمر بها الحضارة الغربية فيها بمرحلة ضعف وانهيار، إذ أن الفكر الصوفي هو مخصص بطبيعته لهذه المرحلة من مراحل الحضارات.

خصوصا وكانت الحضارة الايرانية والرومانية والهندية تعيش مراحل ضعفها وانهيارها في تلك الفترة التي جاء الاسلام، وكانت الافكار الصوفية هي سائدة على محافل الفكر، وحين تسللت هذه الافكار الى العالم الاسلامي عبر حركة الترجمة في القرن الثاني وجدت ذهنية طائفة من الامة مستعدة لتقبلها، إذ أنها كانت تبحث

- أنئذ - عن أفكار من هذا النوع.. أفكار لامسؤولة تبريرية.

وهذا يفسر سرعة إنتشار الافكار الصوفية في الجماهير المسلمة منذ القرن الثاني مع إمتلاكهم رسالة إسلامية نابضة بالحيوية والحركة، ذلك لأن هذه الجماهير تركت هذه الثقافة تعمّداً، وركنت إلى الضعف والجمود.. لا لضعف في الثقافة أو عيب، وإنما لنقصٍ فيهم.

والأفكار الصوفية إنتشرت منذ القرن الثاني في الامة، وتكاملت في القرن الثالث والرابع على يد (الحلاج) و(السهروردي) و(إبن الفارض) و(إبن عربي).. ثم تحولت إلى كتل إجتماعية على يد (عبدالقادر الجيلاني) في عام٥٦١.

إن هذه الافكار كانت ترتكز على ثلاثة مفاهيم تنسف المسؤولية البشرية أمام الاحداث، وتبرّر الجريمة والفساد. وهي:

١- وحدة الوجود: تشويش الرؤية

وهذا المفهوم كان يهدف تمييع الحدود الموجودة بين الاشياء، وبالتالي جعل الاشياء جميعا في حالة ضبابية كبيرة لا تميز بين الخير والشر والكبير والصغير، بل وبين الخالق والمخلوق، حيث قالت الصوفية إن الخالق والمخلوق واحد، وكانت نتيجة ذلك، أنه لا حاجة إلى عبادة الله، وإذا افترضنا - حسب زعم الصوفية - أن عبادة الله واجبة، فليست هنالك طريقة واحدة لهذه العبادة هي التوجه إلى الكعبة، إذ أن كل شيء في الوجود هو الله، فعبادة الأصنام هي الأخرى عبادة لله، يقول الشاعر الصوفي الفارسي ما ترجمته:

(غايتي من الكعبة ومعبد الاصنام أنت.. أنت..

وما الكعبة والاصنام إلا ذرائع..).

و لم يكن صراع الانبياء مع أعدائهم - حسب الفكر الصوفي - حول التوحيد، بمعنى الدعوة إلى إله واحد لا إله إلاّ هو، إنما كان حول التوحيد بمعنى جعل كل شيء إلها، وعدم التفرقة بين عبادة الله الخالق وبين عبادة الصنم والشمس، والنجوم والانهار وما الى ذلك من عبادات..

فموسى عليه السلام - والكلام للصوفية - لم يقل لفرعون لماذا تعبد الشمس، إنكاراً لهذه العبادة، إنما إنكاراً للاكتفاء بها، فكان معنى كلامه لماذا تعبد الشمس وحدها؟

وهذا المفهوم يميع الصراع بين الحق والباطل، فلا يدع حدودا معقولة بينها حيث يقول شاعرهم:

عقد الخلائق في الالى عقائدا وإنني اعتقدت جميع ما عقدوه

إنه ينزع الفتيل من أي نوع من الحركة السياسية في العالم.

ترى ان الامة التي تتحداها قوى معادية عسكريا وإقتصاديا وفكريا، كم تتضرر بمثل خرافة (وحدة الوجود) التي تشبه برميل ماء مثلج يصب على حرارة الاندفاع في النفوس، وتبعدهم عن التضحية والفداء؟

والواقع إن الامة الاسلامية عندما تعبت من الجهاد ومواجهة التحديات، واختارت التقاعس، وركنت إلى الخفض والدعة، أخذت تبتدع هذه النوعية من الأفكار التي ظاهرها حب السلم للجميع، وباطنها التهرب عن المسؤولية، والانطواء على الذات.

من هنا كانت أبرز المنافع التي سيفوز بها الصوفي هو سقوط التكاليف الشرعية، والواجبات الاجتماعية عنه، وكلما إزداد تمسك الصوفي بمذهبه، إزداد هروبه من مسؤولياته.

يقول الدكتور (غني) في كتابه المسمى بـ (تاريخ التصوف

الاسلامي) في ص٨٥:

(الصوفي الناضج لا يريد أن يقيد نفسه بالانظمة الشرعية والآداب والعادات المصطنعة التي يهتم بها الناس، وبالتالي ليست للشريعة والاعمال الظاهرية فيها قيمة عند الصوفي.)

ويضيف قائلا في ص٣٨٦:

(يقول كبار الصوفية: حيث يفنى الصوفي في ذات الله، كما تفنى القطرة في البحر، يسقط عنه أي تكليف، حتى أنه يستوي عند العارف الذي وصل إلى مرحلة الفناء، يستوي عنده الكفر والايمان.)

٢ - فكرة الحلول: عبادة الذات

وهي تزعم أن روح الله تعالى تحل في جسم الانسان، وهذه الفكرة متوغلة في اللامسؤولية إلى حد بعيد، إذ أنها تعطي الشرعية لكل عمل يقوم به الصوفي، لانه - حسب هذه الفكرة - يجسد الله في تصرفاته، إذ الله قد حل فيه حلولا، تعالى الله عما يقولون.

وانطلاقا من هذه الفكرة، ليس هناك ما يسمى بمقياس (الحق) الذي يكتشفه ويدعو إليه عقل البشر وفكرته، إنما هو مقياس (الحب والهوى والشهوات) التي يدعو لها الشيطان، إذ ما دام الله (رمز الشرعية المطلقة) قد حل في الذات، فكل عمل يصدر منه فهو مشروع، والحق الذي يتجسد في القرآن الحكيم، غير مقبول على ظاهره، إنما يجب تأويله بما يتناسب مع أفكار الصوفية اللامسؤولة. يقول (نيكولسن) في وصف أسلوب إبن عربي في كتابه المسمى بـ (الفصوص):

(إنه يأخذ نصا من القرآن أو الحديث، يأوله بالطريقة التي نعرفها في كتابات (فيلون) اليهودي، و(اريجي) الاسكندري ويستند كل

(فص) من الفصوص السبعة والعشرين الى طائفة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية المتصلة بالكلمة الخاصة لـ (النبي) الذي تُنسب حكمة (الفص) إليه، يعني أنه يسمي كل فص باسم نبي، مثل فص موسى، فص هارون، فص محمد، وهكذا..).

يعمد إبن عربي في كل ذلك، إلى تخريج المعاني التي يريدها من الآيات والاحاديث، بطريقة خاصة في التأويل، فان كان في ظاهر الآية ما يؤيد مذهبه، - ولو بشكل قسري - على التشبيه والتجسيم أخذ بها، وإلاّ صرفها إلى غير معناها الظاهر.

إن هذه الطريقة في تأويل القرآن وفي تفسير التاريخ، تتناسب مع روح اللامسؤولية التي يعيشها الصوفي الهارب من الحياة، إذ أنه يعطيه طريقة التخلص من القرآن، كتاب الحق، كتاب الهداية، الفرقان بين الشهوات والعقل.

أما الله الحق الثابت، الذي يجب أن نقيس عليه حقائق الاشياء، أما الله فلم تكتف الصوفية بانكاره إعتماداً على فكرة وحدة الوجود، وإنما أيضاً جعلوا أنفسهم مكانه إعتماداً على فكرة الحلول، وبذلك تمت لهم اللامسؤولية المطلقة.

وأما العقل، فانه محارَب بشدة من قبل الصوفي الصحيح، يقول ابن عربي: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، لتقلبه في أنواع الصور والصفات، و لم يقل لمن كان له عقل، فان العقل قيد).

هكذا يتهاوى عند الصوفي اسس الحق من (عقل) أو (قرآن) أو (إله) وتبقى الشهوات محور الاختيار.

٣ - الزهادة الصوفية: التحلل عن المسؤولية

الزهد بالمفهوم الاسلامي هو (الفاعلية الايجابية، والعمل،

والمسؤولية) جاء في الحديث: (ليس الزاهد في الدنيا تحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا الرضا بالقضاء والصبر على المصائب واليأس عن الناس.)[1] وجاء في الحديث: (ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عزوجل.)[2]

هذا هو الزهد في المفهوم الاسلامي، أما الزهد في المفهوم الصوفي فانه نتيجة الفكرتين السابقتين، إذ تدعو فكرة الزهد الى اللامسؤولية، بل وتقدسها مباشرة، بينما فكرة وحدة الوجود تمهد لها بتمييع الصراعات، والحدود والانظمة، أما فكرة الحلول فهي تبرر إتباع الشهوات، وتسحب الشرعية من الحق، وتتمحور حول إله جديد هو الذات.

من هنا كان (الزهد) بمفهومه الصوفي هدفا للفكر الصوفي، وبؤرة يصب فيها كل رواسبه، بل كان الزهد الجذر النامي الذي استقت منه سائر الافكار، فمن أجل تبرير الزهد، وتبرير اللامسؤولية وتبرير الكسل والجمود والاحتيال على الناس و.. و.. من أجل ذلك كله سَوَّلت للصوفية أنفسهم تلك الافكار الخرافية الزائفة.

والشواهد التاريخية على تبريرية الفكر الصوفي، وأنه استُخدِم كغلاف ثقافي يحتضن كل جريمة وكل فساد، كثيرة.

وفي الفصل القادم سوف نستعرض الظرف التاريخي الذي ساعد على نمو الفكر الصوفي، لنرى هل نحن الآن ضحايا تلك الافكار؟ وهل علينا اليوم تصفية ثقافتنا منها؟

---

١. مستدرك الوسائل، باب إستحباب الزهد في الدنيا.

٢. بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣١٠.

١٠
دور الثقافة التبريرية في انهيار الأمم

قلنا سابقا، إن الفكر التبريري يحمل صبغة أممية، إذ تمر كل أمة بمرحلة سبات، تغلفها بثقافة تبريرية تصنع بها صنع الهيروئين في الرجل المتعب من الحياة.

وهذا ما حدث بالضبط في الامة الاسلامية، إذ انتشرت الفكرة الصوفية بعد مرحلة إنتشرت خلالها حالة التحلل الخلقي في الامة، وذلك في بداية القرن الثاني للهجرة، وهو القرن الذي شهد بداية حركة التصوف، وما تبعها من حركة الترجمة والتي كانت بمثابة جسر لنقل الافكار التبريرية القديمة الى الامة.

يقول ابن خلدون، وهو يؤرخ القرن الثاني: ولما اتسعت حركة الترف واللهو، ظهرت فرقة المتطوعين للنكير على المجان، ظهر خالد الدريوس وبرنامجه أن يأمر بالمعروف وينهى على المنكر بطلب الاصلاح.[١]

ويقول القشيري في كتابه (رسالة في التصوف) وهو يتحدث عن مآل الصوفية: (وزال القَنَع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام).. ثم يقول: (ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الافعال، حتى أشاروا إلى أعلى

---

١. القيم الانسانية للفكر الاسلامي والثقافة العربية، ص١٤١.

الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الاغلال، والتحقوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه وهم ليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يقررونه عتب ولا لوم، وانهم كوشفوا بأسرار الاحدية، واختطفوا عنه بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية.)[1]

ولقد تنبه قادة الاصلاح في العالم الاسلامي إلى دور الفكر الصوفي في تخلف الامة، فحذروا منه تحذيرا شديدا، فقال عنه جمال الدين الافغاني (ت/١٣٤١ هـ - ١٨٩٧م): (إنهم يتخذون الايمان بالقضاء والقدر سبيلا إلى القعود عن طلب الرزق، إنّ الايمان بالقدرة الالهية ليس حائلا دون حرية إرادة الانسان، إن الايمان بالقضاء هو الذي مكّن المسلمين الاوائل من الفتوحات، إن هؤلاء الذين لا يفهمون من التوكل إلاّ معنى التواكل، يُستحب إزالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، لان آراءهم ليست على وفاق مع الدين.)

وقال عن التصوف الشاعر المصلح (محمد اقبال) (ت١٩٣٨م):

شدوه فينا يزيد الكللا　　كأسه فينا تزيد المللا
نَوَّمت الحانه يقظتنا　　أطفأت أنفاسه وقدتنا
خسة في ذلة في شقوة　　يائس، مستسلم للخيبة

واعتبر المصلح الجزائري (عبد الحميد بن باديس) التصوف سببا للاستعمار، لا لأن التصوف يشيع التواكل والتخاذل والاستسلام فحسب، بل لان مشايخ الطرق الصوفية يتواطؤون مع المستعمرين غفلة أو عن قصد.

---

١. مجلة (عالم الفكر) الكويتية - المجلد السادس - العدد الثاني ص ٢٠.

بين التخلف والتجسيد

إن نظرية الحلول الصوفية بررت عملية التجسيم التي كانت لها ثلاثة مظاهر متدرجة هي:

١ - فكرة أن الله تعالى جسد شبيه بجسد الآدميين.

٢ - فكرة أن هناك أشخاصاً متميزين على الناس بذواتهم.

٣ - فكرة أن كل شيء يكون أقرب إلى هؤلاء يكون أقرب إلى الحق.

و(التجسيم) في مظاهره الثلاث هذه كان موجودا في عمق الذات البشرية، و لم يكن وليد نظرية الحلول، وإنما هو سبب نشوء هذه النظرية، وعلة ولادتها. فالانسان يعتقد بـ (التجسيم) اولا، ثم يبحث عن فلسفة لتبرير الفكرة، إذ من الصعب على الانسان الساذج أن يؤمن بما وراء الاشياء من حقائق، أي بالغيب. هنالك يقصر إيمانه على الحقائق المباشرة التي يراها، فهو إذ لم ير زارع الحقل، وباني السور، ومخطط الارض.. بميل إلى إفتراض أن الحقل نبات بلا زارع، والسور تضريس طبيعي، وطرق الارض كانت صدفة.

وإذ رأى حادثة تصور أنها بلا سبب، أو على الاقل مال إلى هذا التصور.

الايمان بالغيب

وكلما ازداد وعي الانسان كلما استطاع أن يؤمن بالغيب من خلال إيمانه بالشهود. أن يؤمن بالصانع من خلال ما صنع. ويؤمن بالمهندس من خلال خططه، وبالزارع من خلال ما زرعه و.. و.. لا يؤمن به فحسب، إنما يعرفه أيضا، ويحدد صفاته. فعن طريق النظر إلى لوحة جميلة يستطيع الخبير إكتشاف نفسية صاحبها، ونوعية

إهتماماته.

ورسالات السماء، ودعوات المصلحين من أهل الارض.. تركزت على هذه النقطة، حيث استهدفت توعية البشر، لكي ينفذ ببصيرته من خلال عالم الشهود المباشر إلى عالم الغيب غير المباشر.

وكان أعظم الغيوب الذي وضعت رسالات السماء كل إهتمامها في سبيل تكريس الايمان به.. كان بالطبع هو (الخالق) الذي اذا عرفه البشر، وتعلم طريقة معرفته بآياته.. إستطاع أن يعرف أيضا سائر الغيوب، وان يؤمن بها، وأهم تلك الغيوب الوحي والقيم التي نزل بها.

ذلك إن الوحي هو الذي يرفع طائفة من البشر الى مركز (القيادة) لا بسب موهبة ذاتية أو إعتبارات إجتماعية، وإنما باعتبار غيبي، فالرسول مطاع باذن الله. والرسول يبرىء الاكمه والابرص باذن الله. ويحيي الموتى باذن الله. قال عيسى بن مريم لبني اسرائيل:

﴿..أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ آل عمران،٤٩

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة،٩٧

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ..﴾ النساء،٦٤

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد،٣٨

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ القدر،٤

وما هو إذن الله؟

إنه أمر غيبي، ومن دون الايمان به لا نستطيع ان نعرف الرسول[1].

وكذلك الامام من بعد الرسول، لا يكتسب إعتباره من موهبة ذاتية، علمية أو جسدية أو نسبية، كما لا يكتسب إعتباره من الناس، إنما من الله، وهو أمير لان الله إنتخبه، وهو إمام لان الله جعله للناس إماما[2].

والناس درجات: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ آل عمران،١٦٣ ، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام،١٣٢، أمثلهم طريقة وأقربهم رشدا هم أتقاهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات،١٣، فالتقوى هي مقياس التفاضل بين الناس، وهي أمر يكتسب اعتباره من الله، اي من الغيب.

الغيب ماذا ولماذا؟

وتسألون: ما الغيب، هذا الذي يجعل الرسل رسلا والائمة أئمة، ويرفع المتقين درجات؟ ونجيب إنه إرادة الله. مشيئته. حكمه الفصل. وقوله الحق.

وتسالون: ولماذا يريد الله ذلك؟ لماذا يختار الله من البشر انبياء وائمة واولياء؟ أعبثا، أم وفق حكمة بالغة؟

ونجيب: تعالى الله عن العبث واللعب واللهو في أفعاله، ليس بين

---

١. جاء في الحديث (اعرفوا الرسول بالرسالة) ويعني الحديث إن معرفة الرسالة لن تكون سابقة على معرفة الرسول بل متسببة منها وآتية بعدها.

٢. جاء في القرآن: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾﴿ص،٢٦﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ الجاثية،١٨، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ البقرة،١٢٤ .

الله وبين أحد من خلقه قرابة، وخلقه يستوون عنده في انهم جميعا عباد الله مربوبون، بيده خَلْقهم ورزقهم وموتهم ونشورهم.

وإنما بالاعمال يتفاضل الخلق بينهم، فالاعمال الصالحة هي معراج البشر إلى الله، بينما السيئات تردهم إلى أسفل سافلين.

ولولا أن العمل هو وحده يميز بين الانسان وبين نظيره الانسان.. ولولا أن الارادة الحرة التي تصنع العمل موهبة يشترك فيها الناس جميعا.. إذن لكان الله ظالما لعباده، أو - على الأقل - كان بعيداً عن الحكمة في أفعاله سبحانه وتعالى.

فهل يكون ظالماً ذلك الرب القوي الغني الذي وهب كل شيء خلقه وهداه بلا حاجة إليهم بل رحمة وتفضلا وكرما؟ أم يلعب من خلق هذا الكون، وكل شيء فيه آية من آيات حكمته وأنه خبير عليم؟.

العمل الصالح: القيمة الوحيدة

إن الذي يزعم بأن الله خلق الناس درجات، ثم رفع بعضهم على بعض عبثا، وأعطى اناسا ما لم يعط آخرين، إنه ينسب إلى الله الظلم والجهل والعجز، تعالى ربنا عنها.

والرسالة الاسلامية تنفي بشدة ووضوح كل القيم الذاتية التي كانت شائعة في الجاهلية العربية، وفي الاديان السماوية المحرّفة، ورفع الاسلام شعار (العمل الصالح) كقيمة أساسية عند الله والتي يجب أن تتمحور الحياة الاجتماعية حولها أيضا، ولقد جاءت كلمة (العمل) بجميع صيغها أكثر من (٣٥٠) مرة في القرآن، وفي جميعها ربط القرآن الحكيم بين العمل وبين أحداث الحياة، ليجعله قيمة أساسية في الثقافة.. وفيما يلي نثبت بعض النماذج في ذلك.. قال الله تعالى:

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ البقرة،٦٢

وحول أن الحياة الدنيا مرتبطة بعمل الانسان دونه اي شيء سواه، قال سبحانه:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل،٩٧

وأن العمل في ذات الوقت تمهيد للآخرة: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ الروم،٤٤ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت،٤٦

ويبين القرآن أن الجزاء في الآخرة هو عمل الانسان في الدنيا يتجسد ويتحول جزاءً فيقول:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ آل عمران،٣٠

ثم لا يكون الجزاء ناقصا، إذ ليس هناك من عمل صغير أو كبير إلاّ ويحتفظ به ليعطى الجزاء وافيا كاملا: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ الزمر،٧٠

والعمل يكتسب صبغته من الايمان، فلو كان العمل نابعا من الايمان الصادق، فهو عمل صالح، وجزاؤه جنات وافرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ البقرة،٢٥

والعمل هو الذي يُقَيِّم الناس ويرتبهم درجات، متفاضلين بما عملوا: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾الأنعام،١٣٢

وتتصل الهداية بالعمل، وبالرغم من أنها حقيقة عقلية، فانها لا تتحقق من دون ممارسة عملية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس،٩

والعمل السيء يحيط جزاؤه بصاحبه في الدنيا، وإليه يعود بعض من شقاء الحياة الدنيا: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ النحل،٣٤

اما العمل الصالح، فإن أول فوائده أنه يكسب صاحبه الرحمة والود. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا..﴾ مريم،٩٦

وفائدته الثانية، أن العمل الصالح يرفع الانسان في الحياة، فيجعله سيداً وعظيماً وحاكماً: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..﴾ النور،٥٥

وكما العمل الصالح يرفع الامم، فان السيئات تضعهم وتمحقهم ﴿..لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم،٤١

والعمل الصالح هو الذي يحدد هوية الانسان، فليس هناك أنساب أو عروق، أو دماء مفضلة على غيرها، إنما هو عمل صالح يعطي البشر صبغته وشاكلته. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ﴾ غافر،٥٨

ويهزأ القرآن من اولئك الذين يخلطون بين من يعمل صالحا ومن يرتكب الاثم، ويقول ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ﴾ الجاثية،٢١

كلا ليس هناك حدود مشتركة بين الفريقين، انما العمل هو المقياس، ويعود القرآن يكرس العمل الصالح قيمة لتفاضل الناس بينهم درجات ورتبا: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا..﴾ الأحقاف،١٩

ويعود يرفع قيمة العمل الصالح، ويجعلها قيمة أساسية في الحياة، ويقول فيها كلمة فصل حاسم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ البينة،٧

في الدنيا، قد تختلط رؤية الانسان حول العمل الصالح، أما في الآخرة، فهنالك تبدو الحقائق واضحة، وهنالك يعرف المرء قيمة العمل الصالح، ويتحسر ويقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ..﴾ المؤمنون،١٠٠

وضرب القرآن مثلا، لقيمة القربى المزيفة، وانهى الجدل بكلمة فصل، حين قال عن نساء النبي: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ الأحزاب،٣١

وليس هنالك قرابات أو صداقات، إنما هو العمل الصالح يكسبك الجنة: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾الأعراف،٤٣

والهدف البعيد من الحياة ليس إلاّ إختبار الانسان، كيف يعمل.. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾يونس،١٤

والعمل ليس حادثا ينتهي، إنما يوجد ليبقى ويؤثر ويشهد عليه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يونس،٦١

ويتساءل القرآن بتعجب، هل يمكن أن يكون الشقاء الابدي بغير العمل: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾النمل،٩٠

انما الانسان ينفجر أسى ولوعة، ويود لو يعود فيعمل صالحا، ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ السجدة،١٢

ولا يستثن العمل رسل الله، وهم أقرب الناس إليه، إذ يقول عنهم

ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ المؤمنون،٥١

العمل الصالح في منظار المعصومين

والسنة الشريفة، أيدت كتاب الله في تقييم الانسان بالعمل، وجعله قيمة أساسية في الحياة الدنيا والآخرة.

فقال الرسول(صلى الله عليه وآله): (لا يكمل المؤمن إيمانه حتى يحتوي على مئة وثلاث خصال (تنطلق جميعها من العناصر الاساسية) فعل وعمل ونية وباطن وظاهر)[١].

وقال الامام علي(عليه السلام): (الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو الاداء، والاداء هو العمل)[٢].

وقال الامام الباقر(عليه السلام): (الايمان ما استقر في القلب، وأفضى به الى الله عزوجل، وصدقه العمل، بالطاعة له، والتسليم له)[٣].

وقال الامام الصادق(عليه السلام): (الايمان هو إقرار باللسان وعقد في القلب، وعمل بالاركان، والايمان بعضه من بعض)[٤].

وقال ايضا: (فمن أقر بدين الله فهو مسلم، ومن عمل بما أمر الله عزوجل به فهو مؤمن)[٥].

---

١. بحار الانوار، ج ٦٥، ص٣١٠.

٢. المصدر.

٣. المصدر، ص٢٥١.

٤. المصدر، ص٢٥٦.

٥. المصدر، ص٢٥٩.

لماذا اختار الله رسله؟

و لم تكن صلة الغيب بالشهود، صلة السماء بالارض، صلة الله بالانسان، إلا من خلال العمل.

فلم ينتخب الله أنبياءه عبثا، ولا حبوة، إنما علم أين يضع رسالته، فوضعها في أفئدة غمرها اليقين والصبر، وعلى أكف سالت بالاحسان والعطاء، وفي حجور طهرت من الرذيلة والفساد.

وقبل أن يمنح الله عبداً وسام النبوة، امتحنه ببلايا عديدة حتى إذا رأى منه خلوص النية، وعزم العمل، وصدق الموقف، حَمَّله كلمته الى الناس.

إبراهيم، إبتلاه الله بالنار وبالهجرة عن وطنه وبالتضحية بابنه ثم جعله نبيا وخليلا وإماما وقال:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة،١٢٤

إن إبراهيم إستوضح الحقيقة حين سأل: ومن ذريتي؟ ليعرف هل في ذريته أئمة، فأكد الله تعالى له: ان القضية، لا ترتبط بمقياس الذرية، بل بمقياس آخر هو الظلم أو الايمان، فقال له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة،١٢٤

ويعقوب إبتلاه بغياب يوسف - أحب أولاده اليه، أربعين سنة.

ويوسف إبتلي هو الآخر بالضياع والهجرة وافتتن بملكة مصر، وحين ترفع عنها جميعا جعله الله خليفته في الارض وقال:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يوسف،٥٦-٥٧

وسليمان افتتن - هو الآخر - بجسد في كرسيه وقال عنه ربنا:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ص٣٠-٣٥

وابتلى ربنا أيوب إذ قال عنه تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ص،٤١-٤٢

وكذلك الأنبياء الآخرون.

لا.. للقرابة

وضرب الله بنوح مثلا لعدم جدوى القرابة في حساب الله، وقال: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ*وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ*قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ مود،٤١-٤٣

أما المثل الآخر فقد جاء انتزاعا من واقع الزوجة التي لا يغني عنها زوجها شيئا وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ التحريم،١٠

أما الأخ الذي لم يغن عن أخيه من الله شيئا فكان إبن آدم الذي قتل أخاه، فتحمل نصف آثام الارض وقال ربنا عنه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾المائدة،٢٧

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾المائدة،٣٠

وبين الله في آيات عديدة إن أقرب الناس حسبا في الدنيا لا يغني عن الله شيئا وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾لقمان،٣٣

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾البقرة،١٢٣

التشيع هو العمل الصالح

واستوحى قادة الاسلام من كتاب الرسالة هذا المفهوم وقالوا بكل وضوح: ان الطريق الوحيد لنجاة الانسان هو (العمل) وانه لا يغني غيره من الله شيئا.

فقد جاء في الحديث عن الامام علي بن الحسين عليهما السلام: (خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيا[1]).

وقال الامام امير المؤمنين(عليه السلام):

(أما المطيعون لنا فسيغفر الله ذنوبهم إمتنانا إلى إحسانهم. قالوا: يا امير المؤمنين، ومن المطيعون لكم؟ قال: الذين يوحدون ربهم، ويصفونه بما يليق به من الصفات، ويؤمنون بمحمد(صلى الله عليه وآله) نبيه، ويطيعون الله في اتيان فرائضه وترك محارمه، ويحيون

---

١. بحار الأنوار، ج٤٦، ص٨٢.

أوقاتهم بذكره، وبالصلاة على نبيه وآله الطيبين، ويتقون على أنفسهم الشح والبخل، ويؤدون كل ما فرض الله عليهم من الزكاة ولا يمنعونها)[1].

وقال الامام الصادق(عليه السلام):

(ليس من شيعتنا من يكون في مصر يكون فيه آلاف ويكون في المصر أورع منه)[2].

وقال: (إن أصحابي أولوا النهى والتقى، فمن لم يكن من أهل النهى والتقى فليس من أصحابي)[3].

وقال الامام الكاظم(عليه السلام): (شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام و.. و..)[4].

وقال الامام علي بن الحسين(عليه السلام):

(أنّما شيعتنا يُعرفون بعبادتهم وشعثهم، قد قرحت العبادة منهم الآناف، ودثرت الجباه والمساجد، خمص البطون، ذبل الشفاه، قد هيجت العبادة وجوههم، وأخْلَقَ سهر الليالي وقطع الهواجر جثثهم، المسبِّحون إذا سكت الناس، والمصلّون إذا نام الناس، والمحزونون إذا فرح الناس، يُعرفون بالزهد، كلامهم الرحمة، وتشاغلهم بالجنة)[5].

وقال الامام ابو جعفر الباقر(عليه السلام):

(يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر

---

١. بحار الانوار، ج ٦٥، ص١٦٣.

٢. بحار الأنوار، ج٦٥، ص١٦٤.

٣. المصدر ،ص ١٦٦ .

٤. المصدر، ص١٦٨.

٥. المصدر، ص١٦٩.

إلاّ بالتواضع والتخشّع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والايتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الالسن عن الناس إلاّ من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الاشياء).

قال جابر: (يابن رسول الله. ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة.)

فقال الامام: (يا جابر لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحب عليا واتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً، فلو قال إني أحب رسول الله، فرسول الله خير من علي، ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنة، ما نفعه حبه إياه شيئا.

فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عزوجل وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر! فو الله ما يُتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلاّ بالطاعة، ما معنا براءة من النار ولا على الله لاحد من حجة، من كان لله مطيعا فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصيا فهو لنا عدو، ولا تُنال ولايتنا - أهل البيت - إلا بالعمل والورع).[1]

ما هو العمل الصالح؟

إن العمل الصالح هو الطريق الوحيد الى السعادة..

والسؤال: ما هو العمل الصالح؟

لا ريب إنه ذلك العمل الذي ينبع من الايمان الصادق ويتحدد في مسار القيم الرسالية التي وافقت آيات الله وسنة الرسول، فقد جاء في الحديث عن الرسول(صلى الله عليه وآله): (لا قول إلاّ بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة)[2].

---

١. بحار الأنوار، ج٦٧، ص٩٧، ح٤.

٢. بحار الانوار، ج٧٥، ص١٤٦.

إن هذا المفهوم من العمل يجعله متصلا بالغيب، إذ القيم ليست أجساما يتحسس بها الانسان ويتلمسها بيديه، ولأنه غيب فهو بحاجة إلى وعي كاف لاستيعابه والايمان به، فمن دون وعي يزعم البشر استواء العمل الصالح والسيئات، إذ أنهما في ظاهر الامر شبيهان..

وارتباط أحداث الحياة بالعمل ليس إرتباطا محسوسا، إنما هو غيب - في أكثر الاحيان -.

صحيح إنك تذهب إلى المصنع، وتعمل نهاراً كاملا، وتحصل دنانير، وتعرف أن حصولك على المال جاء نتيجة مباشرة لقيامك بعمل، ولكن ليست أحداث الدنيا دائما متصلة بعملك مباشرة، إذ وجود المصنع، وجود الامن في البلاد، قدرة صاحب المصنع على تسويق بضاعته، ضمانك الاجتماعي والصحي، وجود مواصلات جيدة بين محل سكنك وبين موقع عملك.. هذه ومئات الشروط الاخرى الضرورية لحصولك على المال هي أيضا متصلة بجهودك، ولكن بصورة غير مباشرة.. ونضالك من أجل الحرية والعدالة والقيم السامية مرتبط بقدرتك على حصول الثروة ولكنه إرتباط غير مباشر.

بين الغيب والعمل الصالح

إذن.. نحن بحاجة إلى وعي الغيب لنفهم إن أية حادثة في الحياة مرتبطة بأعمالنا وأتت منا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولذلك فالبشر المتخلفون الذين لا يفهمون إلاّ ظاهرا من الحياة الدنيا لا يدركون هذه الحقيقة، بل لا يريدون أن يدركوها. إنهم يحاولون ربط الحياة واحداثها، خيرها وشرها، بأي شيء ما سوى أعمالهم، تملصاً من المسؤولية وفرارا.

إن الرجل المتخلف يتعامل مع الظاهر، والظاهر هو جسد الحقيقة،

بينما الباطن هو روحها التي لا تُعرف ولاتُرى. الظاهر هو الحدث. الظاهر هو الانسان. الظاهر هو النتائج. بينما الباطن هو سبب الحدث. هو عزم الانسان. هو الاعمال التي أدت إلى النتائج.

عبادة الذوات لماذا؟

وهنا تنشأ مشكلة (التجسيد) إذ أن بشر التخلف لا يرى الله فيصعب عليه الايمان به، فيتصوره رجلا أو شجرة أو حيوانا أو حتى صنما، فيعبده.. إنه لا يستطيع أن يصعد من خلال آيات الله المشهودة الى الايمان به غيبيا.

إنه لا يرى الملائكة تهبط على الرسول فيصوره رجلا يختلف ذاتا عن سائر الناس، كما الذهب يختلف عن الحديد، والدرّة عن الحصاة.

أما القادة فلا يربط بينهم وبين كفاءاتهم وأعمالهم الصالحة، إنما يزعم أنهم من سلالة متميزة بالذات عن غيرها.

والمجتمع - في منطق المتخلف - عناصر متفاضلة، أراد الله لبعضها السيادة والسعادة والعزة والبطالة، بينما أراد للآخرين العبودية والتعب والذل والاجتهاد، ويقول شاعرهم:

سادة نحن والانام عبيد ولنا طارف العلى والتليد

اذن.. فالتجسيد بمختلف صوره آت من التوقف على ظاهر الحياة، دون الايمان بما وراءها من حقائق يغيب عنها الاعمى ويشهدها من اوتي قلبا واهتدى.

والتجسيد هو سبب مشكلة (الغنوص) التي تمتد في تاريخ البشر إلى كل الامم، إذ ما من أمة إلاّ ومرت به حينا من الدهر عندما ضعف وعيها وارتبطت بالظواهر.

عبادة الذوات مراحلها وألوانها

والتجسيد حين يمس مسألة الخالق يكون نظرية (المجسمة) وحين يرتبط بموضوع الرسول يخلق نظرية (الانسان - الاله) وحين يتدرج إلى واقع الائمة إذا به يعطي الغلو، وإذا انتهى الى المسائل الدينية يؤدي إلى تضخيم المظاهر على حساب الحقائق، أما في المسائل الاجتماعية فان حالة التجسيد تتحول الى (طبقية، عرقية، مقيتة).

وفيما يلي نستعرض التجسيد في صوره هذه إبتداءً بنظرية (التجسيم) في الله، وانتهاء بـ (الطبقية العرقية).

تقول المجسمة - وهم فريق كبير من المسلمين، كانوا قد ظهروا في كل المذاهب الاسلامية تقريبا - يقولون: إن الله ذو حد ونهاية، وإنه طويل عريض عميق، وإن طوله مثل عرضه، وان عرضه مثل عمقه، ولم يثبت طولا غير طويل، ولا عرضا غير عريض، وليس ذهابه في جهة الطول أزيد على ذهابه في جهة العرض، وانه ذو لون وطعم ورائحة ومحبة، وان لونه هو طعمه، وطعمه هو رائحته، ورائحته هي محبته، ولم يثبت لونا وطعما هما غير نفسه..

هذه بعض أفكار المجسمة، ولكن السؤال:

من أين جاءت هذه الافكار؟

-: إنها جاءت من حالة التوقف عند الظواهر دون السعي لجعلها طريقا الى الحقائق.. ذلك إن هؤلاء عجزوا عن الايمان باله ليس بجسم، إنما زعموا إن كل شيء موجود لا بد أن يكون جسما، وإلاّ.. فهو غير موجود، وقال قائلهم صراحة:

(إنه جسم ذاهب، جائي، فيتحرك تارة ويسكن اخرى، ويقعد مرة ويقوم اخرى، وإنه طويل عريض عميق، لانه ما لم يكن كذلك، دخل في حد التلاشي)[1] - أي لا نستطيع أن نؤمن به أصلا-.

---

١. نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام - الجزء الثاني ص ٢٢٤.

إن التعبير بـ (حد التلاشي) يفضح خلفية نظرية (التجسيم) في مسألة الخالق وهي حالة العجز عن الايمان بالغيب إيمانا نابعا من دلالة الشهود عليه، باعتبار ان الشهود، هو آيته واسماؤه. من هنا تصورت هذه النظرية الغيب على أنه يشبه الشهود، وكل نظريات المشبهة في التاريخ البشري آتية من هذه الخلفية، اما حجر أو شجر أو حيوان أو بحر أو جبل أو شمس أو بدر أو نجوم[1].

ويهزأ الامام الصادق بهذه النظريات، ويقول لو أن بقرة تصورت ربها، تصورت له قرنين. اذ ان حدود تصور البقرة، هو حدود هيكلها الذي فيه قرنان.

القرابة المفقودة بين الله والانسان

وحالة التجسيد في الانسان، والتي تنشأ من الجمود على الاجسام المشهودة، كان خلفية للافكار (الغنوصية) في التاريخ البشري، سواء في المسلمين، أو في أتباع الديانات والفلسفات السابقة عليه.

إن (الغنوص) هو النظرية التي تزعم وجود نوع من القرابة بين الله وبين بعض عباده.

فاليهود إتبعوا هذه النظرية، في النبي (عزير) عليه السلام والنصارى في (المسيح بن مريم عليهما السلام).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّه وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّه ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ التوبة، ٣٠

ومن قبل اليهود والنصارى، قالت الفلسفات الاغريقية والفارسية والهندية بهذه الفكرة الغنوصية، وإنما تسربت الفكرة منها إلى اليهود

---

٢. راجع كتاب (الله) لعباس محمود العقاد.

والنصارى حسب ما أشار القرآن الحكيم بقوله ﴿يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي يتشبهون بقولهم..

ولم يكتف اليهود والنصارى، بأن جعلوا عُزيراً ابن الله، إنما جعلوا أنفسهم أيضا (أبناء الله) وقالوا: نحن أبناء الله وسائر الناس ابناء البغال والحمير.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم[1] بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المائدة،١٨

ثم استنتجوا من هذه الفكرة أنه يحل لليهود العبث بسائر الخلق ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ آل عمران،٧٥

سنرى ان هذه الفكرة كانت في الظاهر نتيجة القول بأن عزير ابن الله، ولكنها في الحقيقة علة لها، حيث ان اليهود حين أرادوا الهروب من المسؤولية برروا عملهم بالتفكير (الغنوصي) الذي بدؤوه بأن عزيراً ابن الله، وانتهوا بأن جعلوا كل يهودي ابن الله ليخلصوا من مسؤوليات الحياة.

وقص علينا الله قولهم في القرآن الكريم:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران،٧٥-٧

وتسربت فكرة (الغنوص) إلى المسلمين، وتكونت فرق عديدة

---

١. وضعت الآية الكريمة هنا النقطة على الحرف الاساسي في الامر، وهو أن اليهود لن يتخلصوا بهذه التبريرات من العذاب، وعليهم إذن أن يتحملوا مسؤوليات أعمالهم.

زعمت نوعا من الغنوص، فمثلا (ابو الخطاب) الذي ادعى موالاة جعفر الصادق(عليه السلام) الا انه لما وقف الامام الصادق(عليه السلام) على غلوه الباطل في حقه، برىء منه ولعنه، وأخبر أصحابه بالبراءَة منه وشدد القول في ذلك، وبالغ في التبرء منه، واللعن عليه[1].

وقال في حقه (اللهم العن أبا الخطاب، فانه خوفني قائما وقاعدا وعلى فراشي، اللهم أذقه حر الحديد).[2]

هذا الرجل تصوَّرَ أن الامام الصادق(عليه السلام)، علمه الاسم الاعظم، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة، ثم ادعى الرسالة، ثم ادعى أنه من الملائكة، وأنه رسول الله إلى أهل الارض، والحجة عليهم.

أما جماعته، فقد أحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وتركوا الصلاة والصيام والحج، وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض.

وكان في الامة فرق تقدس (سلمان الفارسي) وتنسب إليه أنواعاً من (الغنوص).

وفكرة (الغنوص) اتخذت نظرية التناسخ سنداً لها وتبريراً لهدفها في إنهاء المسؤولية.

وكما رأينا إن فكرة (الغنوص) إنتهت في اليهود إلى التحلل من المسؤولية، وفي أنصار إبن الخطاب إلى الميوعة والفساد، أفلا يمكن أن نعتقد أن التحلل من المسؤولية هو الهدف وراء نشوء هذه الفكرة؟ إن هذه الفكرة محقت صلة الانسان بعمله، (فعزيز، والمسيح، ومحمد(صلى الله عليه وآله) لم يرتفع أحدهم إلى النبوة بعمله، إنما بقرابته مع الله، لحلول روح الله فيه، لتحوّله الصاعد من البشرية الى الالوهية!!)

---

١. نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص ٣٠٩ عن الشهرستاني (الملل والنحل) ج١، ص٣٠٠.

٢. المصدر، عن رجال الكشي، ص١٨٧.

وكذلك أتباعهم لا يُشترط أن يرتفعوا بالعمل، إنما بمجرد الارتباط الروحي يتم الارتفاع، هكذا يسقط العمل عن الحساب وهكذا تسقط المسؤولية!

والامة الاسلامية إنتهت، ومنذ عصور مضت، إلى هذا الواقع التجسيدي السيء، حيث تجدها تقدس الرسول واوصياءَه تقديسا غنوصيا، بسبب تقديس المشركين لاوليائهم، واليهود والنصارى لعزير والمسيح.

وانتشرت أشعار المدح التي جعلت كلا من الرسول وأوصيائه ذاتا كريما، كما أن الدر مثلا حجر كريم، وقال قائلهم عن الامام علي عليه السلام:

علي الدر والذهب المصفى وباقي الناس كلهم تراب

وقال الشاعر الفارسي ما مفهومه: (ما أبعد الهاشمي عن الادمي، الادمي من تراب، والهاشمي من نور).

إذا كان النبي واوصياؤه من نور، وليسوا من تراب، إذن فما هو فضلهم على الناس؟ كلا.. إن الرسول بشر. قال الله سبحانه:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إبراهيم،١١

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الكهف،١١٠

واوصياؤهم بالطبع من البشر.

والبشر يعني مفهومه تماما، ولكنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولانهم بشر، فهم كرام على الله، ولانهم إختاروا الله، فاختارهم الله، ولانهم عبدوا الله، فقد عظمهم الله.

ولكن هل انتهى التقديس إلى هذا الحد؟

كلا.. بل نزل التقديس في الاولاد وراثة، وزعموا أن أبناء

الرسول مكرمون إلى يوم القيامة، حتى ولو خالفوا الله، واتبعوا شهوات السلاطين.

عجبا، الرسول لا ينجيه إلا عمله، بينما أبناؤه يدخلون الجنة حبوة؟.

ويا ليت اكتفى هؤلاء إلى هذا الحد، إنهم جعلوا أنفسهم أبناء الله واحباءه، كما فعلت اليهود، فالجنة لهم، لانهم ورثة الأنبياء ومحبوهم.

إن الله سبحانه هزء من كفار قريش، حينما زعموا أنهم أولى بابراهيم، إذ أنهم أبناؤه وقومه ومحبوه، وقال لهم:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران،٦٨

وان الله سبحانه نهر نوحا (شيخ المرسلين) حين قال عنه:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ*

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ*

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هود،٤٥-٤٧

ولكن الامة عادت تتمسك بذات القيم الزائفة التي جاءت الرسالة نفيا لها، وإنقاذا للانسان من ويلاتها.

فاذا بنا نزعم انتماءَنا للرسول وإلى الاوصياء، بمجرد حبنا لهم، وتعظيمنا لأجسادهم، ألا تعسا لامة حوّرت مفاهيمها وبدلتها من بعد علم.

ولأاننا اتخذنا القيم أجسادا لا معاني، وذواتا لا أعمال، والفاظا لا مواقف حياتية، فاننا بدأنا نضخم الاجسام ونتمحور حولها، ترى

المساجد تعمر على حساب عمارة القلوب، وتُشاد البنايات الضخمة من أجل إحياء ذكرى الرسول واوصيائه.

إن عمارة المسجد لا تنفع قرشا، لو لم ترتبط بايمان صاحبها، إذ الاجسام والهياكل، لا قيمة لها عند الله، إن صخور الجبال اضخم جسما وأكبر هيكلا، وإن الله يريد قلوبا، واعمالا ومواقف، وهو الذي يقول:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّه مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ. أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التوبة،١٨-١٩

١١
المسؤولية بين اليأس والرجاء

كيما يتملص من مسؤولية تواكله وجموده.. ينظر الرجل المتخلف إلى الاحداث بأحد منظارين يبدوان، بادىء النظر، متناقضين، ولكنهما في الواقع طرفان لمنظار واحد، هو منظار التخلف، وطرفاه الاغراق في اليأس أو الرجاء الذين يكشفان عن منظار تبريري يوحي بالجمود. فاذا كان الامر ميئوسا منه فلماذا العمل؟ واذا كان الامر يحدث تلقائيا فلماذا العمل، ايضا؟

قالوا لأحدهم: لم لا تنهى عن جرائم تقع في البلد؟

فتمثل بقول الشاعر:(سحابة صيف عن قريب تقشع).

وبعد مدة جاءوا إليه وقالوا: لقد انتشرت الجرائم في البلد بصورة فظيعة فلماذا لا تنهى عنها؟

تأوه صاحبنا وقال هذه المرة متمثلا بقول الشاعر:

(اتسع الخرق على الراقع) يعني لا ينفع العمل بعد انتشار الجرائم..

..هكذا يكون الفكر المتخلف، فبين أن يقول لا يحتاج، وبين أن يقول لا يُستطاع.. وفي كلتا الحالتين يتخلص من المسؤولية.

إن المريض الوحيد الذي يبحث عن العلاج هو الذي ينطلق من محور: ١ - إمكانية العلاج. ٢ - والتي لا تصبح فعلية الا بالسعي.

أما المريض الذي استيأس من برئه، أو الذي زعم أن جسمه يقاوم المرض طبيعيا، فانه لا يكلف نفسه عناء البحث عن علاج لمرضه.

وهـذا المحـور (بـين اليـأس+الرجـاء) هـو قُطبـا الكهربـاء السـالب والموجب الذي يحتك في ضمير الفرد فيولد حرارة السعي.

ولكن اليأس والرجاء هنا ليسا كاليأس والرجاء السابقين، إذ هما هناك ناشئان من محاولة التبرير والفرار من المسؤولية، وهما هنا يكرسان العمل ويدفعان نحو المسؤولية، إذ اليأس هنا إنما هو يأس من الطبيعة. من الناس. من التاريخ. من كل شيء (ما سوى سعي الانسان ورحمة الله) والرجاء هنا إنما هو رجاء في السعي فحسب، فاذا تحقق هذا النوع من المنظار المركب من اليأس والرجاء تفجرت طاقات البشر.

ليس للانسان الا ما سعى

ولقد عبر الله في القرآن الحكيم عن هذا المنظار المركب تعبيرا واضحا محددا حين قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ النجم،٣٩

وبتحليل هذه الآية نعرف:

١) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ﴾ كلمة يأس محدود من كل شيء. من الطبيعة. من الناس. من التاريخ. و.. و..

٢) ﴿.. إِلاَّ مَا سَعَى﴾ كلمة رجاء محدود في السعي البشري، والسعي هو العمل الهادف المخطط له سلفا، فلا يكون العمل - الفوضى او اللهو او اللعب سعيا.

هكذا قال ربنا في قرآنه وفي كتبه السابقة حسبما حدثنا عنها قائلا:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى﴾ النجم،٣٦-٤١

والفكر المتخلف أنتج تبرير اليأس أو الرجاء منذ أن كان هناك فكر متخلفٌ وجيلٌ من المتخلفين، وقاومت الرسالة وحماتها الاشداء هذا النوع من الفكر ودعاته بحزم وإصرار.

فقديما كان اليأس يسمى بـ (الجبر) والرجاء بـ (التفويض).. حيث اثيرت مشكلة الجبر والتفويض في الامة.. وبالرغم من أن الجبر يناقض التفويض، إلا أنهما بالتالي يوحيان بفكرة واحدة هي إبعاد الانسان عن مسؤولياته، حيث كانت الجبرية تزعم أن أفعال الناس هي من صنع الله، وأن لا خيار للانسان فيها - خيراً أم شراً - وبالتالي لا يتحمل البشر مسؤولية عمله، لأنه ليس هو الذي يقوم به.

أما المفوِّضة فزعمت أن الله فَوَّض شؤون الحياة الى الانسان ذاته وله أن يعمل ما يشاء دون محاسبة او مسؤولية.

لاجبر ولا تفويض

وكانت كلمة الرسالة في الامر صريحة وقوية، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام:

(لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين)[1].

فليس هناك حتميات فوقية تفرض على البشر سلوكه أو تملي عليه إرادته، كما إن أعمال الانسان واختياراته ليست شاذة عن سنة الحياة التي تلاحق المذنب بالجزاء، والصالح بالمثوبة.

فلا مناص عن تحمل المسؤولية التي تعني:

١) حرية الانسان في تصرفاته (نفي الجبر).

٢) وجود سنن عامة لا بد أن يتقيد بها الانسان وإلاّ تعرض للجزاء (نفي التفويض).

---

١. بحار الأنوار، ج٤، ص١٩٧.

وفضح الرسول العظيم(صلى الله عليه وآله) فلسفة الجبر والتفويض التبريرية، والتي هي فلسفة الاغراق في اليأس أو الرجاء، فضحها بكلمة مختصرة حين لعن قدرية هذه الامة، أي الذين لا يؤمنون بمسؤولية الانسان أمام تصرفاته سواءً بالجبر أو بالتفويض، بالاغراق في اليأس أو الرجاء فقد جاء في بحار الأنوار: روى جماعة من علماء الإسلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (لُعنت القدريّة على لسان سبعين نبياً.) قيل: ومن القدرية يا رسول الله؟ فقال: (قوم يزعمون أن الله سبحانه قدّر عليهم المعاصي وعذّبهم عليها.[1])

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: (صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية.)[2]

التوكل.. حركة وطموح

والاسلام يعالج مشكلة الرجاء باليأس. ويعالج مشكلة اليأس بالتوكل.

ولان جيل التخلف لم يفهموا لا مشكلة الرجاء ولا مشكلة اليأس لم يفهموا التوكل، ولذلك فان توجيهات الاسلام لم تنفعهم شيئا، بل حوروها واتخذوا منها أقنعة تبريرية لتقاعسهم عن العمل والسعي.

دعنا نفصل القول في هذا الأمر قليلاً:

اليأس عنصر أساسي في ثقافة الرسالة، وآيات القرآن تفيض باليأس عن الناس. عن الطبيعة. وتقول أنه لا الناس ولا الطبيعة (المال. الصحة. السلطان. المجد. القوة.) بمكن أن يعتمد عليها الانسان. انها

---

١. بحار الأنوار، ج٥، ص٤٧، ح٧٣.

٢. بحار الأنوار، ج٥، ص٧، ح٧.

لا تضر ولا تنفع شيئا.. يقول الله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ الزمر،٣٨

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ. قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الزمر،٤٣-٤٤

كل شيء من دون الله. كل الشركاء الذين يضع الفرد فيهم ثقته (الثروة والجاه والناس و.. و..) لا يمكنهم أن يقفوا دون مشيئة الله تعالى، فلا ينفعون ولا يضرون الانسان شيئا، فلا بد من اليأس الكامل عنهم.

ليس هذا فقط، بل إن هذه الشركاء (الثروة والجاه والناس) ليست لها قيمة عند الله، فلا يمكنها القيام بدور الوسيط، وأنه ليس من الصحيح القول بأن الرجل الفقير، أبعد من رحمة الله من الرجل الغني، بالزعم بأنه ليس للفقير ثروة تشفع له، بينما ثروة الغني تشفع له، وتقف حاجزة له دون إجراء العدالة الالهية عليه.

العمل.. الميزة الحقيقية

إن اليأس من كل المخلوقين هو في الواقع بداية طريق (التوكل على الله) إذ ما دام الضر والنفع حادثين، وما دامت هذه الشركاء لا تنفع ولا تضر شيئا، فلا يبقى إلا الله الضار النافع، ولا بد من وضع الرجاء فيه، واستعمال اليأس من سواه.

ولكن هل إن الرجاء في الله هو ذاك الرجاء السلبي العاجز؟ كلا..

ان الله عدل لا يجور، وحكيم لا يظلم ولا يلعب ولا يلهو ولا يعبث، وانه خلق السماوات والارض بالحق، أجراها وأرساها على سنن حكيمة عادلة، فكيف يشذ في تصرفه مع الانسان، عن قاعدة الحق والعدل؟ كيف يعطي ويمنع، يضر وينفع عبثا، وبلا مقياس؟

إنما يضر من يحق له الضر، وينفع من يستحق النفع، بمقياس حكيم وقيمة رشيدة، ولا بد أن يكون سعي الانسان ذاته هو ذلك المقياس، لانه ليس هناك شيء في العالم، يعطيه الانسان من ذاته غير السعي.

ليس هناك ميزة بين الانسان، تصنعها الارادة الحرة غير السعي (العمل).

أن نسب الانسان ميزة تفرق بين الانسان والانسان، ولكنها ميزة حتمية لا تصنعها إرادة الانسان نفسه، كذلك لونه. ارض الولادة. عمره. و.. و.. إنها ميزات، ولكنها ليست من النوعية التي يمكن أن يربط الله الحكيم بينها وبين سعادة الانسان، أو بينها وبين عطاء الله له، أليس الله حكيما؟ فكيف يعطي ويمنع بأسباب طبيعية لم يصنعها الانسان نفسه؟

فمثلا.. كيف يمكن أن يرفع الله أحداً لمجرد أنه إبن فلان؟ أفلا يستطيع أن يعترض غيره على حكم الله ويقول: لماذا يا رب؟ أنا لم أختر نسبي، بل أنت إخترت لي ذلك، فلماذا تضرني؟ وهل هذه حكمة منك؟

التوكل.. طريق الى العمل

إن سعي الانسان هو مقياس تعرضه للنفع والضرر من الله، وبذلك نفهم معنى جديدا للتوكل، وبعيداً عن ثقافة المتخلفين، فالتوكل ليس التواكل، ليس الجمود والسلبية والانتظار، إنما هو

العمل، لأن الله عدل حكيم، وإنه لا يضر أحداً ولا ينعفه، لمجرد أنه تمنى ذلك، إنما التوكل على الله هو: إسقاط كل القيم الرجائية في أي شيء غير الله، لينفتح الطريق أمام الثقة بالله، ذلك الحكيم الذي إنما يعطي ويمنع بالحق، أي بمقدار سعي الانسان، ومستوى إيمانه، وعمله الصالح.

هكذا يفسر الحديث النبوي التوكل على الله، لنستمع إليه يشرح ليس فقط معنى التوكل، ولكن أيضا أهميته في الدفع إلى العمل:

(جاء جبرئيل إلى النبي، فقال: يا رسول الله، ان الله تبارك وتعالى أرسلني اليك بهدية، لم يعطها أحداً قبلك.

قال رسول الله:

قلت: وما هي؟

قال: الصبر، وأحسن منه..

قلت: ما هو؟ قال: الرضا، وأحسن منه.

قلت: ماهو؟ قال: الزهد، وأحسن منه.

قلت: ما هو؟ قال: الاخلاص، وأحسن منه.

قلت: ما هو؟ قال: اليقين، وأحسن منه.

قلت: ماهو؟ قال جبرائيل: إن مدرجة ذلك (أي: السلم المؤدي إليه) التوكل على الله عزوجل.

فقلت: وما التوكل على الله عزوجل؟

فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق، فاذا كان العبد كذلك، لم يعمل (انظر كلمة لم يعمل) لأحد سوى الله، ولم يرجُ، ولم يخف سوى الله، ولم يطمع في أحد سوى الله، فهذا هو التوكل.)[1]

---

١. بحار الانوار، ج٧٤(كتاب الروضة)، ص٢٠.

إن التوكل على الله لا يعني سوى ذلك المحور البناء بين اليأس والرجاء، فهو يأس من كل شيء من دون الله، ورجاء في الله، رجاء ايجابيا، يحفز على السعي لأن الله حكيم، لا يعطي ولا يمنع الا بالحق.

التوكل.. سلاح ضد الخوف

ويبقى سؤال: ما هو دور فكرة (التوكل) في انهاض البشر ودفعه إلى السعي الدؤوب؟

فكرة التوكل جاءت لتحارب هاجس الخوف، ذلك الهاجس الذي يشد البشر الى العبودية والاستسلام.

فالتوكل على الله يعني: نبذ الخوف من السلطان الجائر، من العدو المتربص، من الطبيعة المهيبة، من كل شيء جديد، من الجن والغول، من سائر المشعوذين، ومن كيد المنافقين و.. و..

إن القرآن وضع (فكرة التوكل) في (الموقف الخائف) لينسف الخوف، ويحرر الانسان من قيوده، ويدفعه قدما الى العمل.

تدبر في الآيات التالية، وحاول أن تبحث عن الموقف الذي أمر الله فيه بالتوكل. يقول ربنا عن موقف يتخاذل فيه الناس عن الرسالة، ويخشى الرسول عليها: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ..﴾ التوبة،١٢٩

ويقول سبحانه عن موقف يتحدى النبي العظيم نوح(عليه السلام) كفار قومه دون أن يخشى جبروتهم، بفضل سلاح التوكل على الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ يونس،٧١

وعن موقف يدب الذعر في أفئدة الرساليين من قوم موسى ويبيتون ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يونس،٨٣

هنالك يدعوهم نبيهم موسى الى التوكل لمقاومة الخوف:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يونس،٨٤

وتطمئن أفئدتهم الى ذكر الله.

﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يونس،٨٥

وفي موقف يحاول أعداء الرسالة، تطويع أبنائها بالتعذيب،هنالك يقول هؤلاء لاولئك:

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إبراهيم،١٢

وفي موقف يخشى أبناء الرسالة من مؤامرات الاعداء وتناجيهم بينهم، فيطمئنهم الله ربهم ويقول:

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المجادلة،١٠

وحين يوسوس الشيطان في النفس وتزيد حرارة الشهوات، ويخشى المؤمن خطر السقوط في درك العصيان بفعل كيد الشيطان.. هنالك يطمئن الله المؤمنين ويقول لهم:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ النحل،٩٩

وفي موقف يعتزم الانسان القيام بأمر ولكن تبقى في نفسه بقية من تردد.. هنالك تعطيه (فكرة التوكل) دفعة الى الامام:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران،١٥٩

وعندما يأمر الاسلام بالسلم، ويخشى المسلمون من السلام.. أن يستغله أعداؤهم في الاعداد لهجوم غادر أو لتحصين مواقعهم أو وصول تعزيزات جديدة.. هنالك يكتنف الموقف خوف فتأتي فكرة التوكل لتطهره من الخوف، وتساعد على اشاعة السلام:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الأنفال،٦١

وحين يأمر الاسلام بنبذ طاعة الكفار والمنافقين، يخشى المؤمنون من مغبة التمرد، فيقول الله:

﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الأحزاب،٤٨

فالتوكل أداة لنسف قواعد الخوف من الموقف المتأزم، لكي لا يندفع الانسان في قرارات خاطئة، أو يستسلم للوضع الفاسد خشية تغييره وإصلاحه.

والتوكل بالتالي سلاح للانسان يدافع به عن حريته في المواقف الصعبة، وإذ يتحرر الانسان يندفع للعمل وتتفجر طاقاته البناءة.

التوكل.. أم الاعتماد على الذات؟

والحضارة الحديثة جاءت بفكرة اخرى لتحرير طاقات الانسان الى العمل.. تلك الفكرة هي (الاعتماد على الذات).

فترى إن كلمات (الاعتماد على الذات)، (الاكتفاء الذاتي)، (صنع المستقبل بأيدينا)، (التحكم في الطبيعة) و.. و.. هي التي تستخدم في توجيه الانسان ودفعه الى العمل.

والرسالة إهتمت بهذه الفكرة من خلال إهتمامها الكبير بالسعي الذي جعلته محور الحياة، إلا إن (فكرة التوكل) هي أكبر فاعلية

وقدرة على تفجير طاقات الانسان من فكرة (السعي) أو (الاعتماد على الذات).

ذلك إن إيمان الانسان بطاقاته قد يكون ضعيفا، وثقته بنفسه قد تكون محدودة، بينما ثقة المؤمن بربه لا تحد، وإيمانه بقدرته عظيم.

فبينما يحتاج الفرد إلى تجربة قدراته قبل أن يثق أنه قادر على أن ينجز عملا، لا يحتاج المؤمن إلى مثل ذلك.. لانه يؤمن سلفا بأن الله لا يخون وعده بالنصر له.

والاعتماد على الذات يشيع في القلب هاجس الغرور بينما التوكل يقتل الغرور ويحرق جذوره.

ذلك لان المؤمن يعلم أن قواه وقدراته ليست له، إنما هي لله، فلذلك لا يعتمد عليها ولا ينخدع بها، ويبقى دائما يقظا لكي لا تذهب قدراته إن لم يحسن إستغلالها.

ولان المؤمن يعلم أن الله هو الذي خوله الطاقات التي يمتلكها، فهو بسهولة يوجهها في سبيل الخير والاصلاح، لأنها ليست له وإنما لله، والله أمَره بذلك.

بينما الذي يعتمد على ذاته قد يجد صعوبة نفسية في توجيه طاقاته الى سبل الخير والاصلاح.

القيادة والمسؤولية البديلة

ليس فقط في المسلمين اليوم، وإنما في كل الامم المتخلفة، ومنذ أن قالت اليهود لنبيهم موسى عليه السلام:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة،٢٤

نقول: في كل الامم المتخلفة، القيادة تجسد نوعا من المسؤولية البديلة عن الناس.

لقد قالت النصارى إن عيسى حمل آثام أتباعه وذهب.. بهذا تخلصوا جميعا من مسؤولياتهم وألقوا على كاهل المسيح أعباءها.

ونحن اليوم.. نختلف عن الشيعة الحقيقيين في أن الكثير منا يزعمون أن قياداتهم تتحمل مسؤوليات المجتمع كلها.

وعن هذه النظرة السطحية الخاطئة تتحدث أسطورة (القردة) حيث بعثوا واحدا منهم الى البشر ليستطلع حياتهم، فرجع إليهم يقول: لقد رأيت عند هؤلاء الاحياء (البشر) أمراً عجيبا.

قالوا: وماذا رأيت؟

قال: رأيت أنهم يلتفون حول أحدهم ويلقون عليه كل المسؤوليات والاعباء، ويرمونه بكافة أنواع الملامة والشتم.

قالوا: فهل هو مقيد بين أيديهم؟

قال: لا.

قالوا: فلماذا لا يهرب؟

قال: لست أدري، إنما أعرف إنهم ينادونه (قائد. قائد.) وأظن أن في هذه الكلمة سحرا يحافظ عليه.

.. هذه الاسطورة القديمة تكشف عن طبيعة القيادة في البلاد المتخلفة. إنها نوع من التخلص عن المسؤولية عند الجمهور وذلك بالقائها على القيادة. فمثلا: حيث إنهم يريدون أن يتعلم أولادهم، وهم يتكاسلون عن فتح مدارس لتربيتهم وتعليمهم، ولكي يخرجوا من هذا التناقض يزعمون أن المسؤول عن التعليم هي الدولة.

ولكي يكرسوا هذا الواقع في أذهانهم وفي واقعهم، يضفون على القائد هالة من المجد، ويزعمون أن فيه قدرات إضافية هائلة.

وهذا يفسر تحول القادة في البلاد المتخلفة عموما - وعندنا بوجه خاص - إلى رمز خرافي للمجد، ومنبع اسطوري للقدرات الغيبية.

بينما القائد عند غير المتخلفين بشر يتحمل نوعا محددا من المسؤولية، ولا يُكلَّف إلاّ وسعه، وله مثل الذي عليه من الحقوق.

وهذا الشعور الغيبي في القائد عندنا يخلق آثارا سلبية عديدة:

قتل المبادرات الشخصية

١ - فالشعور الغيبي يسبب تعطيل قدرات الافراد وتحديد مبادراتهم الشخصية، وبالتالي: يسلب منهم ثقتهم بذاتهم، وبأفكارهم.. فالرجل الذي يزعم أن هناك رجلا آخر (ينتمي الى فصيلة أسمى وأقوى من فصيلته) هو القائد، يعتقد أن تفكيره مهما كان موضوعيا فسوف لا يصل الى مستوى تفكير ذلك الرجل.. إذن.. لماذا يفكر؟

وقد كان من أسباب هذا الشعور الخاطىء أن الفرد لا يحاسب قياداته محاسبة موضوعية، وبالتالي لا يقوم بواجب إبداء الرأي تجاه أية قضية.

وعلى صعيد السياسة كان من آثار هذه العقلية ضعف الديمقراطية على كل المستويات، وحتى في تلك البلاد النامية التي فرضت عليها الديمقراطية، فإنها لا تُمارَس من قبل الجمهور، لأنهم ينطلقون من موضوعة ثابتة وغير قابلة للنقاش وهي: أن تفكير القيادة أفضل من تفكيرهم أبداً ودائما.

وعلى صعيد العسكرية أنتجت هذه العقلية هزائم متكررة... كان من أبرزها (نكسة حزيران) حيث أن الخبراء ذهلوا حينما اكتشفوا أن صواريخ (ظافر) التي كانت راسية في قلب (سيناء) لم تُستخدم أبداً، وأن مجموعات من الجيوش كانت مزوّدة بالمدافع المضادة للطائرات لم تستخدمها بالرغم من تعرضها لقصف طائرات العدو.

ولدى التحقيق ثبت أن أجهزة إسرائيل شوشت على أجهزة الاتصال العربية، وبذلك لم تستطع الجيوش تلقي الاوامر من القيادة، وحيث أن الجندي العربي يعيش على عقلية (ما فيش أوامر) فانه لم يستطع أن يقوم بمبادرات فعالة في الميدان.

إن من أسوء آثار تحميل القيادة المسؤولية بالنيابة عن القاعدة تعطيل فكر القاعدة، ومن ثم تعطيل مبادراتها العملية.

ونرى في واقعنا المتخلف إن كثيرا من الفرص المواتية فاتت علينا بسبب هذه العقلية الشاذه، فمثلا: كانت قيادة الفرقة الاولى في العراق بيد رجل مؤمن، عندما بدء نظام (عبد الكريم قاسم) بالانحراف.. وكانت عملية التغيير بالنسبة إليه عن طريق الإنقلاب عملية قرار فقط ولكنه لم يفعل، وإنما جاء يستأذن بعض القيادات الدينية في الانقلاب، وبما أن تلك القيادة لم تكن تثق بالرجل، أو لم تكن لديها رؤية سياسية متكاملة لم تأذن له.. وبما أن الرجل لم يكن يثق بنفسه لم يفعل، وبالتالي: الذي حصل أن الدولة إرتابت في تحركات القائد فعزلته.

وكثيرا ما نصادف هذه الحقيقة في مجالات العمل الديني. إن مشاريع إسلامية تُعرض على التجار فيمتنعون عن تنفيذها إلا بأوامر مباشرة من قيادة دينية بالرغم من أن التاجر مقتنع بجدواها.

كل ذلك لضعف المبادرة الشخصية عندهم.

القيادة لا تصنع المعاجز

٢ - وبما اننا - ومعنا كل الشعوب المتخلفة - نبني القيادة على أسس غيبية، فاننا معرضون لفقد الثقة بها في أية لحظة، إذ أن الرجل الغيبي ينبغي أن يقوم بأعمال كبيرة، كما يجب أن يكون معصوما،

أما إذ أخطأ فان جزاءه أكبر من جزاء الآخرين.

ومن البسيط جداً تعرض القيادة لنقد الافراد، إذ أن الفكرة الغيبية حول القيادة تجعل جميع الاخطاء من نصيب القيادة فتسقط آليا..

ولا تغيب عن ذاكرة التاريخ واقعة (الخوارج) حيث أصروا على الامام علي عليه السلام قبول التحكيم، ثم حينما فشل التحكيم حملوه مسؤولية الفشل وجردوا السيف عليه. وهذه الواقعة تتكرر في بلادنا باستمرار.

وحيث عرفت القيادة الدينية هذه العقلية الشاذه، إنسحبت من الحياة إنسحابا مطلقا، ورضيت القاعدة بهذا الانسحاب، حيث أرضى فيهم الشعور بالتخلف والسلبية.

وحين إنسحبت القيادة الدينية تحركت القيادة السياسية لتشغل الفراغ، ولكن القاعدة لم تستجب لها، لأنها لم تكن ترى فيها ذلك المستوى الغيبي، فحدثت فجوة عميقة بين الانظمة وبين الشعوب، هذه الفجوة أعطت القاعدة مزيدا من التقوقع، وأورثت القيادة مزيدا من الضعف.

يقول د. شاكر مصطفى:

(غياب السلطة السياسية كنظام امن وقانون وخدمة وتسلط القوة العسكرية الغريبة على الناس، واستمرار الاستبداد والظلم والبؤس الاجتماعي قرونا بعد قرون، بحيث أصبح المثل الاعلى هو الحاكم العادل.. كل اولئك أسهم في إنكماش الفرد العربي، ثم قوقعته الذاتية، وأشعره بعزلته أمام مصيره، وبأنه أعزل أمام القهر الحياتي.)[1]

ويقول: (توطدت لدى الطبقات التحتية مع الايام عقد من المشاعر المستقرة أعطتها الظروف، وتقلب الحكام، وحكم السيف

---

١. محاضرة الدكتور شاكر مصطفى في ندوة أزمة التطور الحضاري ص ٢٦.

المبرم، منها: الشعور بالعجز والخنوع والهروب من المسؤولية ورفض التعامل مع الحكومة، وتحليل سرقتها (أموال المدير حلال) والهروب من دفع الضرائب التي كثيراً ما كانت تسمى (مظالمات) حتى المجرمون كان من العيب تسليمهم للسلطات).

وما دامت القاعدة عندنا متمسكة بنظراتها الغيبية تجاه قياداتها التي تنتظر منها، ليس العصمة في الرأي، والمثالية في السلوك فقط، وإنما أيضا أن تكون (البديلة) في تحمل المسؤولية، دون أن تعطيها الثقة والطاعة الكافيتين، لاداء المهام القيادية والمسؤوليات العامة المناطة بهم.

ما دامت القاعدة عندنا هكذا فلن تنجب فينا قيادات قادرة على تفجير طاقاتها وتوجيهها لتحقيق أمانينا في الحياة.

إن مشكلة (التفكك) عندنا نابعة هي الاخرى من رؤيتنا غير الصحيحة إلى القيادة، ولن نتخلص من التفرقة إلا بتغيير هذه الرؤية الشاذة.

ولكن هل هذه هي الرؤية الشاذة الوحيدة فينا؟

كلا، إننا مبتلون اليوم بـ (أزمة رؤية) حادة في كل المجالات وهناك مظاهر عديدة لهذه الازمة، ولا بد أن يقوم المخلصون من الامة بعمل عظيم للخروج بأنفسهم من (ازمة الرؤية) التي يعانون منها، والى ذلك اليوم ستظل الامال معقودة بجهاد هذه الفئة المخلصة التي ستنتصر بإذن الله.

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد،٧

١٢
التاريخ المفترى

إن رواية التاريخ لا تعكس أحداثا مضت فقط، بل تعكس ايضا حياة تجري، إذ لا يروي الجيل تاريخه إلاّ من خلال رؤيته للحياة وأفكاره عنها، وفلسفته فيها.. لذلك فلكل جيل تاريخ يناسبه ويعكس نفسيته ومشاعره التي يسقطها على الماضي.

وجيل التخلف كان له تاريخ يعكس مفاهيمه ويفلسف واقعه ويبرر سلبياته ومساوءه، ويكرس - بالتالي - تخلفه في أنفس أبنائه.

ذلك التاريخ ليس - بالتأكيد - هو تاريخ الرسالة.. تاريخ جيل الرسالة.. تاريخ رجال النهضة.. إنما هو تاريخ مصطنع، تاريخ مفترى، وله سمات عديدة نابعة - جميعها - من محاولة التبرير والجمود الذي يلف الجيل.. إن كل لقطة تاريخية يقصها علينا جيل التخلف هي حجر عثرة في طريق النهضة، بل هي عقبة كأداء لانها تسعى وراء إبعاد دور الانسان الحالي عن صنع حياته، وتلك السمات عديدة ولكن أبرزها هي التالية:

لا.. للحزن البارد

١ - تاريخ جيل التخلف يعكس الحزن البارد الذي يعيشه هذا الجيل، إنه يقص علينا المآسي والويلات، ويقص علينا النهايات المفجعة التي آلى إليها الرساليون، وكأن الدنيا كانت سلسلة ظلم

وكارثة ومأساة.

انه لا يروي يوما واحداً تشرق فيه الشمس على الحياة الدنيا إلاّ ويلبدها بغيوم سوداء لا خير فيها، حتى إذا تحدث هذا التاريخ عن إنتصار الرسالة في يوم بدر فانه يقصه لكي يمهد به لقصة المأساة التي إنتهت إليها حياة بطل بدر (الامام علي) عليه السلام، فيمزج الانتصار بالهزيمة بطريقة غير مباشرة.

والمصائب التي صبت على آل البيت لا تُروى مقرونة بالانتصارات الرسالية الهائلة التي كسبوها في أفئدة الناس وفي واقع الامة، إنما تُنقل وكأن كل الدماء التي أُريقت في محراب مسجد الكوفة، وخلف جثمان الامان الحسن في المدينة، وفي أرض كربلاء و(فخ) و(جوجزان) و.. و.. كلها ذهبت هباءً.

إن ثورة (المختار الثقفي) ومن قبلها إنتفاضة (التوابين) والثورات التي انفجرت ضد الحكم الاموي، كلها لا يتحدث عنها هذا التاريخ، أولا أقل لا يجعلها مرتبطة بتلك التضحيات التي قدمها آل البيت وأنصار الرسالة.

إن هذه الرواية الكاذبة في التاريخ تكسي النفوس غلالة من السلبية واليأس، وتجعلها لا تفكر في العطاء ما دام العطاء لا يجدي نفعا.

وهذه السمة تخالف رواية الرسالة بالتاريخ كما نجدها في القرآن الحكيم الذي يسلط الاضواء على الانتصارات التي إكتسبها الانبياء وأنصار الرسالة، بالرغم من كثافة الجهود المعادية التي حاول بها الكفار منع إنتشار الرسالة.

هذه الرواية الرسالية للتاريخ تجعلك تمتليء رجاءً بالمستقبل فتفجّر طاقاتك جميعا.

الانسان يصنع التاريخ

٢ - لكي يخلص نفسه عن ثقل المسؤولية، يربط جيل التخلف أحداث الحياة إلى مؤثرات غيبية لا تمت بصلة قريبة او بعيدة الى أعماله، فالله والاقدار والشياطين والملائكة هي التي تحرك أحداث الحياة، أما الانسان فما هو إلاّ أداة بسيطة في بعض تلك الاحداث.

وقد انعكست هذه الرؤية الغامضة المشوشة على رواية التاريخ، فاذا بالتاريخ صنيع الغيب، يقلبه كيف يشاء، لا حول للانسان ولا قوة فيه.. فاذا سألته: لماذا سقطت دولة الرومان؟ ولماذا إنتهت حضارة اليونان؟ ولماذا ضعفت حكومة بني أمية؟ وكيف قامت دولة بني العباس؟ أجاب: الله أراد ذلك، وكفى.

بهذه الكلمة الموجزة لم يخلص جيل التخلف نفسه من عناء التفكير والبحث فقط، وإنما أبعد عن نفسه المسؤولية أيضا، فاذا كانت الدول في التاريخ تقوم وتسقط كاوراق الشجر فانها اليوم أيضا كذلك.. فلماذا أسعى وأجهد نفسي، وإنما الافضل العمل بقول شاعرهم:

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز الا النُوَّمُ

بينما التاريخ الرسالي يربط بشدة بين أي حدث وبين سعي الانسان.. فاذا سقطت دولة فانما هي بظلم أهلها، وإذا سادت امة فانما بصبرها ويقينها، واذا شاع الرخاء فبالايمان أما إذا ظهر الفساد في الارض فبما كسبت أيدي الناس.

بشر.. لا أنصاف آلهة

٣ - وتكريسا للافكار اليائسة والسلبية، يزعم جيل التخلف أن

التاريخ يصنعه أنصاف آلهة، هم بشر ولكن: كيف بشر؟ نفخت فيهم السماء روح القدرة، فصنعوا التاريخ بالمعجزات.

بهذه الرؤية يبعد جيل التخلف بين التاريخ وبين الشعوب، كما يفصل بين التاريخ وبين الحاضر، إذ ينسف الجسر الذي ينتقل عليه الينا خبرات الماضي وعبره، فهم غيرنا ونحن لا نصل الى مستواهم.

إنما الرؤية الرسالية إلى التاريخ لا تنكر دور الشعوب في صنع الاحداث، ولا دور الافراد فيها.. والافراد هم بشر أمثالنا يمكننا تمثيل ادوارهم، إن خيرا أو شراً..

وهذا القرآن، وهو كتاب الرسالة، تحدث عن القرون الخالية كأنهم أحياء بيننا، وحذف بتعمد فاصل الزمان والمكان، وربط بشدة بيننا وبينهم.

وإذا تحدث عن صانعي التاريخ الرسالي (الانبياء الكرام) ألقى عليهم ظلال الالم والخوف والعجز والغضب، لا لإمتهانهم، إنما لنسف الحاجز الذي يصنعه جيل التخلف بينه وبين عبر التاريخ لكي لا ينتفع بها، ذلك الحاجز الغلو الذي نهى عنه ربنا بشدة حين قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ المائدة،٧٧

لنفهم جميع القرون

٤ - ولان إختيار جيل التخلف للتاريخ تم وفق أهوائهم فانهم اقتطعوا منه جانبا سلطوا عليه الاضواء وأهملوا سائر الجوانب، ذلك الجانب هو (القرن الاول) للهجرة، حيث يتصور انه المجتمع المثالي الذي لن يتكرر مرة ثانية.

إن ما يعرفه الجمهور من تاريخه، لا يعدو الحديث عن غزوات

الرسول وما جرى بعده من خلاف تكرس في واقع الامة حتى اليوم، ولكنه لا يعرف ما جرى على بلاده قبل خمسين عاما، إذ لا يمكنه أن يفقه علاقة حياته بحياة آبائه الاولين، علاقة واقعية لا تنفصم برغم جهلنا، إذ أن شخصيتنا تصاغ شيئا فشيئا عبر الزمن.

لا.. للشعب المختار

ثم إن جيل المتخلفين أُبتلي بنظرة (شوفينية) عن نفسه، فإذا به فوق مستوى العالم، وإن تاريخه هو أعلى من تاريخ العالم.

وبهذه النظرة إبتعد جيل المتخلفين عن التفاعل مع تاريخ العالم من حوله، وعن الاستيحاء منه بطريقة تتحول إلى طاقة هائلة التأثير في عقلية أبنائه.

إن جميع أبناء العالم كفرة، ولذلك فليس لديهم شيء يمكن أن يُحمد، إذن فالواجب علينا الانغلاق الكامل عليهم.

ما هي حرب الاستقلال الاميركي؟ ما هي الثورة الفرنسية؟ ما هي ثورة التحرر الاوروبية؟

لا نعرف عنها شيئا، وهي إذا عرفنا، فلا ترتبط بنا ما دمنا لا نرتبط بهم، إنهم كفرة ونحن مسلمون، والحمد لله.

وإن هذا الانفصال الخطير عن تاريخ الامم سبب لنا مضاعفتين:

الاولى - أبعدنا عن الاستفادة من روح التاريخ، لنعرف ما هي سنن الحياة؟ وكيف تقدم من تقدم؟ وكيف تأخر من تأخر؟ وكيف هلك من هلك؟.

الثانية - أبعدنا عن فهم تاريخنا، إذ أن فهم تاريخ الاخرين لو حصل كان يعمق نظراتنا إلى تاريخنا عن طريق المقارنة والتشبيه، إن القرآن أمرنا عبر آيات عديدة بالسير في الارض، والنظر الى تاريخ

الشعوب، ولكن هذا الامر لم نطعه وخسرنا بذلك اشياءً كثيرة.

التاريخ ليس بديلا

٥ - لان جيل التخلف توقف عن العطاء، و لم يصنع مجدا ولا عملا عظيما، فانه يبحث عن العطاء والمجد في تاريخه، فيدعي الانتماء إليه لعله يسد نقصه به.

اذا رأى جيل التخلف تقدم الغرب في شتى حقول الحضارة، فان الطريق الطبيعي الذي يجب عليه أن يسلكه هو تحمل (مسؤوليته بالعمل) من أجل التقدم، أليس كذلك؟ ولكنه ينحرف عن الطريق السوي، ويبحث عن بديل مناسب، يُشبع به إحساسه بالنقص دون أن يتحمل (مسؤولية) أو يعمل (عملا) فيجده في التاريخ فيأوي اليه، كما تأوي قطيع الغنم الى الكهف، في ليلة ماطرة.

وعملية تبديل العصر بالتاريخ تسبب عدة مضاعفات ابرزها:

أصالة القيم لا أصالة التاريخ

الاولى: تقديس التاريخ وتقييم الحاضر به، فاذا كان قطعة مشابهة لقطعة تاريخية فانها حميدة، والا فلا.

وتقديس التاريخ لا يبرر الجمود فحسب، وإنما يصبغ عليه صبغة دينية.. فاذا بكل شيء قديم خير من جديده.. الحمير خير من السيارة، والسيارات أفضل من الطائرات، والسفن الشراعية أفضل من أختها البخارية، وحتى السيارات العادية أفضل من الاوتوماتيك لانها أقدم.

الساعة شر، لانها مستحدثة، ولكن الساعة اليدوية والتوقيت الزوالي أكبر شراً، لانها أجدد من غيرها.

ولان الانسان (يدّين) القديم ويجعله (مقدسا) أنّى كان، فانه يتصور أن كل عمل قام به السلف هو بالضبط ما أمر به ربنا تعالى ويقص علينا القرآن هذه الفكرة حين يقول:

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ؟﴾ الأعراف،٢٨

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ*قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رِّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ الأعراف،٧٠-٧١

إن الكفار زعموا أن العمل الذي قام به آباؤهم أصبح دينا أمر به الله، وفي الاية الاولى قال ربنا: إن هنالك أعمالا يرتكبها آباؤكم، هي سيئة في عرف العقل، ومستحيل أن يأمر الله بالسيئات. وفي الاية الثانية بين الله إن مجرد إرتباط عمل ما بفعل الاباء لا يجعله دينا إلاّ إذا نزل الله به سلطانا مبينا.

ورغم هذا التوجيه القرآني الصريح، ترى جيل التخلف فينا لا يزال يعتبر (السلف الصالح) و(قدماء الاصحاب) حجة شرعية.

لا.. لتراجعية التاريخ

الثانية: الشعور بأن الدنيا تتراجع الى الخلف، فمنذ ظهر الاسلام وحتى اليوم يزعم جيل التخلف إن كل يوم يمضي يخطو فيه الانسان خطوة الى النهاية المريعة، اذ (خير العصور عصر الرسول ثم يليه الاقرب فالأقرب.) كما يقول مؤرخوا المسلمين.

إن الثقافة الرسالية تؤمن بتقدمية وتكاملية الحياة، فآخر الانبياء هو أفضلهم، لانه جاء مكملا لرسالاتهم، وهو فتح على الامم آفاقا جديدة، وكل امة يجب أن تمتد عبر افق حتى تتكامل الدنيا وتنتهي عندما يسود الارض العدل المطلق.

بيد إن الثقافة المتخلفة تجعلنا نشعر وكأننا نتزحلق إلى هاوية دون أن نملك حيلة نوقف سقوطنا المحتم فيها.

بالله عليك كيف يمكن لهذا الانسان أن يبني حياته وهو يشعر أنها تنكص على الاعقاب؟.

لنعش في عصرنا

الثالثة: الغيبة عن العصر الذي يعيشه ليحضر في العصور الماضية.. انهم لا يعرفون ماذا يجري حولهم، وإذا عرفوا لا يهتمون به، اذ يزعمون إن حياتهم تتأثر بقصص الف ليلة وليلة ومحاورات سيبويه والكسائي، وخلافات المعتزلي والاشعري، وجدليات سني وشيعي، أكثر من تأثره بصناعة الصواريخ العابرة للقارات، والقنابل الهيدروجينية، وهبوط الانسان على سطح القمر، وتقارب الصين وامريكا، والوفاق بين القوى الكبرى على تقسيم مناطق النفوذ.

بينما الواقع يرفض هذا النوع من التفكير وهذا النمط من الحياة. فانسان اليوم هو ابن عصره قبل أن يكون إبن تاريخه، اذ تهاوت حواجز الاقليم أمام الوسائل النقلية المجنونة السرعة وكادت حواجز الثقافة تختفي بفعل وسائل الاتصال المتعددة والمكثّفة، وإن المصالح المشتركة، والاخطار المشتركة.. جعلت العالم قرية واحدة، والناس فيها اسرة واحدة[1].

---

١. يقول الدكتور شاكر مصطفى في محاضرة القيت في ندوة ازمة التطور الحضاري التي انعقدت في الكويت - يقول: (كان التاريخ قارب نجاة للكثيرين هربا من الواقع المسكين، او كان غربة عن العصر بدلا من أن يكون إندماجا متزايدا فيه، ومن هنا ايضا تحل الاستمرارية التاريخية محل الاصالة، يحل الامتداد الوحيد الاتجاه محل الانطلاق المتفجر مع كل الافاق، وتلتوي الاصالة لتصبح تقليدا وعودة ذليلة الى الارض الاولى كما تعود الاشجار الإستوائية لتجعل من اعضاءها جذورا بدلا من ان تصبح فروعا للزهور والثمر (أفمن يمشي مكبا على وجهه اهدى امن يمشي سويا على صراط مستقيم؟).

فماذا تعني الغربة عن العصر؟[1].

إنها تعني مزيدا من اللاوعي، مزيدا من اللافاعلية، مزيدا من العبودية للاخرين.. ولقد رضيت الامة بهذه النتائج السيئة، ومع الاسف.

والامة الاسلامية اليوم تواجه امماً تتخذ من التاريخ جسرا تعبر عليه الى المستقبل، فالتاريخ (عبرة) يستفاد من روحه وقودا، ومن سننه وقوانينه رؤى لتلمس طريق المستقبل.

إنها تستفيد حتى من تاريخنا - ونحن اعداء - بل إنها أعرف بتاريخنا منا، وأكثر إهتماما لكشف رموزه ودروسه وعبره.

ولكي ننجح في مقاومتنا لهذه الامة، لا بد أن نغير تغييرا جذريا موقفنا من التاريخ، لنجعله في خدمة عصرنا وفي خدمة أجيالنا القادمة.. والا.. فنحن مسؤولون أمام الله وأمام ابنائنا وسنلقى جزاء أعمالنا عاجلا أم آجلا.

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

---

٢. الرسالية ترفض الغربة عن العصر وتقول - كما جاء في نص صريح عن الإمام الصادق عليه السلام - : (العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس). بحار الأنوار، ج٥٧، كتاب الروضة، ص٢٦٩

الفهرس

كلمة البدء ٥

١- أسئلة وحقائق ٧

لماذا هذا التخلف ٧

ثقافتنا هي المسؤولة ٨

لماذا عن الشيعة فقط ٨

التشيّع كيان اجتماعي متميز ٩

ما هو التشيّع ١٠

٢- الطلاق بين الشيعة والتشيّع ١٧

دعائم التشيّع ١٧

١- الولاية ١٧

٢- الامامة ١٨

٣- العصمة ١٩

٤- الغيبة ٢٠

٥- الشفاعة ٢١

٦- عصر الغيبة ٢٣

٧- الفقيه ٢٥

٨- البدعة: الانحراف عن الرسالة ٢٦

٩- التقليد والاتباع ٢٦

١٠- الانتظار: أمل وإعداد ٢٧

متى وكيف انحرفنا ٢٨

الانسان المسؤول الاول عن تاريخه ٢٨

الرسالة حين تبتلعها السلطات ٣٣
٣- حين تصبح الرموز قشوراً ٣٧
الرسالة محتوى وإطار ٣٧
القشور .. هي التي بقيت ٣٩
ألف - اجترار المآسي والدموع الامسؤولة ٤٠
ب - تكرار الجدليات ٤٣
ج - الانطواء على الذات ٤٦
الشعائر :. وسيلة أم هدف ٤٧
الحج .. أصبح الإطار الفارغ ٥٠
٤- هل القرآن .. مجرد حروف بلا معاني؟ ٥٣
القرآن بصائر وهدى ٥٥
١- فلسفة التمرّد في حياة الإنسان ٥٧
٢- فلسفة العصيان ٥٨
٣- معراج العظمة ومنحدر الرذيلة ٦١
القراءات البديلة ٦٥
وكلمة أخيرة ٦٦
٥- الاحكام الشرعية تطبيق رسالي ٦٧
التطبيق السطحي للأنظمة ٦٨
١- الاحكام الشرعية تطبيق قشري ٦٨
٢- الاحكام الشرعية جمود وتقليد ٧٠
٣- أحكام أم أغلال؟ ٧١
٤- أحكام بلا حكَم ٧٢
٦- الثقافة الرسالية .. معالمها وقيمها ٧٥
ماهي الثقافة الرساليّة؟ ٧٦
القرآن .. بصائر وهدى ٨١
٧- الفكرة المسؤولة ٨٧
١- القرآن فرقان ٨٧

٢- العقل المتحرر فرقان ٨٩
٣- رأي القيادة الرشيدة .. ميزان ٩١
الفكرة المسؤولة ٩٢
المسؤولية هدف الحياة ٩٤
المسؤولية وفكرة الأمانة ٩٨
المسؤولية وفكرة الانذار ٩٩
٨- المسؤولية بين الحرية والجزاء ١٠١
الفطرة رأسمال الانسان ١٠٢
لا .. للطغاة ١٠٤
المسؤولية وفكرة الجزاء ١٠٦
الجزاء والعمل ١٠٧
الهداية .. مسؤولية ١٠٩
٩- الافكار الامسؤولة .. كيف ولماذا؟ ١١١
أممية الافكار التبريرية ١١٣
١- وحدة الوجود: تشويش الرؤية ١١٤
٢- فكرة الحلول: عبادة الذات ١١٦
٣- الزهادة الصوفية: التحلل عن المسؤولية ١١٧
١٠- دور الثقافة التبريرية في انهيار الامم ١١٩
بين التخلق والتجسيد ١٢١
الايمان بالغيب ١٢١
الغيب ماذا ولماذا؟ ١٢٣
العمل الصالح القيمة الوحيدة ١٢٤
العمل الصالح في منظار المعصومين ١٢٨
لماذا اختار الله رسله؟ ١٢٩
لا للقرابة ١٣٠
التشيع هو العمل الصالح ١٣١
ماهو العمل الصالح؟ ١٣٣

بين الغيب والعمل الصالح ١٣٤
عبادة الذوات لماذا؟ ١٣٥
عبادة الذوات مراحلها وألوانها ١٣٦
القرابة المفقودة بين الله والانسان ١٣٧
١١- المسؤولية بين اليأس والرجاء ١٤٣
ليس للأنسان إلاّ ما سعى ١٤٤
لا جبر ولا تفويض ١٤٥
التوكل حركة وطموح ١٤٦
العمل .. الميزة الحقيقية ١٤٧
التوكل .. طريق الى العمل ١٤٨
التوكل .. سلاح ضد الخوف ١٥٠
التوكل .. أم الاعتماد على الذات؟ ١٥٢
القيادة والمسؤولية البديلة ١٥٣
قتل المبادرات الشخصية ١٥٥
القيادة لا تصنع المعاجز ١٥٦
١٢- التاريخ المفترى ١٥٩
لا .. للحزن البارد ١٥٩
الانسان يصنع التاريخ ١٦١
بشر .. لا أنصاف آلهة ١٦١
لنفهم جميع القرون ١٦٢
لا .. للشعب المختار ١٦٣
التاريخ ليس بديلاً ١٦٤
أصالة القيم لا أصالة التاريخ ١٦٤
لا .. لتراجعيّة التاريخ ١٦٥
لنعش في عصرنا ١٦٦
الفهرس ١٦٩